

بقلم «ميّ»

نشرته

مجلة «الهلال»

مطبعة الهلال
بشارع نوبار باشا نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢٣

ظلمات وأشعة

بقلم « ميّ »

نشرته

مجلة « الهلال »

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢٣

*

الكتاب الاول

من كوّة الحياة

*

*

... وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف ومن ذا أوقفني هناك . واذا بالناس في السبيل يمرون . فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات لعلي أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني ، ولعلي أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري . فصرت أعجب بالناس وأغبطهم على ما لديهم وليس لي أن أفوز بمثله ، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم لتكون تلك المظاهر صلة ، ولو واهية ، بيني وبينهم . على أني لم أزدد الا شعوراً بحيرتي وعجزي ، لم أزدد الا شعوراً بأني خيال لا ضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة - مع ان هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو . فظننت لحظة اني وصلت الى قرارة اليأس واني شربت كأس المرارة حتى الثمالة . ثم أوحي الي بأن هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة . وشعرت باحتياج محرق الى التعرف اليها والتمتع بها . ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق ...

*

*

انا والطفل

هناك بعيداً عن المدينةِ وضوضائها ، في الطريق المؤدّية الى قصرٍ كان بالأمس للخديو اسماعيل ولم يعُدْ لهُ ، على شطِّ معبود المصريين ومرضع سهول إيزيس – ، على شط النيل النائح في سيره على رفات العذارى المبعثر في أعماقه – هناك روضةٌ غنّاء مفتوحة لجميع الداخلين وقد حفظ جوُّها أحلام زائريها المتأملين

قصدتُ الى الحديقة في صباح يوم منير . نبذتُ عني عادات المدنيَّة فافترشت الثرى كما يفترش سكان البادية رمال الصحراء ، وتمدَّدتُ على العشبِ الأخضر في فيء شجيرةٍ عند قدميّ أحد التماثيل المنصوبة هنالك

لم أرَ حولي سوى سيدتين انجليزيتين مع احداها ثلاثة أطفال . وإن هي الاَّ دقائق حتى اقترب مني أحد هؤلاء ، وهو صبي في الرابعة من سنواتهِ . فناديتهُ قائلةً « تعالَ اليَّ ، أيها الصغير ! » .

أنا والطفل

*

انا فدنا واجفاً باسماً ، فسألته ـ « ألا تجلس على ركبتي ؟»

والطفل فجلس صامتاً

ولما شعرت بثقل جسده الصغير ذكرت أخي الوحيد الميت ، ووثب قلبي الى شفتيَّ وجالت الدموع بين اجفاني . فملتُ الى الطفل امتصُّ من حلاوة وجنتيه ، لاهيةً بتلك القبلة عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعد الغيم من أطراف البحار

ما أعذب قبلة الاطفال ، وما أطيب طعم ابتسامهم !

ثم سألت الطفل ـ « ما اسمك ؟ »

قال ـ « روبرت »

نظرتُ في وجهه فاذا به آية من آيات الجمال الانجليزي: وجهٌ شفَّافٌ كأنما هو عصير وردٍ وياسمين تجمَّد فنُحِت وجهاً بشرياً . وفمٌ كزرّ الورد لطفاً وانكماشاً . وجبهةٌ كبيرة عالية يخفيها شعر ذهبيٌّ مسدولٌ عليها . وعينان لهما زرقة عميقة كزرقة البحار بُعيد الغروب ، وهما كبعض العيون الانجليزية في جمودها الظاهريّ وحرارتهما

أنا والطفل

الخفية وحلاوتهما وتلاعبهما . نظرت في جميع هذه الملامح متمعّنةً ، فقلتُ للطفل — « من أين أتيت بعينيك ، يا روبرت ، ومن أعطاكَ زرقتهما ؟ »

أجاب ، ولمْ يفهم غير كلمتيّ « من أعطاك » :

— « ماما »

قلت — « قرَّت عينا أمك بكَ ! وأيّ عملٍ يعمل أبوك ؟ »

قال ، ولثغاتهُ اللطيفة تتدحرج على لسانهِ متعثرةً بشفتيهِ :

— « بابا ضابط . وأنا عسكري مثل بابا »

قلتُ — « أنت جميلٌ وأنا أحبك يا روبرت . هات يدكَ »

قال — « Yees, than kou »

يد الاطفال عجيبةٌ حلوة كابتسامتهم . أخذت يد روبرت أقرأ فيها ما خطَّتهُ يدُ الاقدار . يدٌ مربعةٌ كبيرة الابهام وفيها كل من خطوط الحياة والعقل والقلب واضحٌ جليٌّ ،

أنا والطفل

وتلُّ المريخ يرتفع في تلك الـكفّ الصـغيرة متهدّداً متوّعِـداً . . .

فنظرتُ اليه وخاطبته همساً :

— « هذه اليد التي تنقل اشاراتها اليوم ما حفظَتهُ من اشارات الملائكة ، هذه اليد التي لا تمتدُّ الا لمداعبة الندى ولمس الازاهير ، هذه اليد الصغيرة الطرية سوف تصيرُ يد جنديّ ، سوف تقبض على السيف والحربة وتطلق النيران من أفواه المدافع ، سوف تفتك بحياة البشر أشراراً كانوا أم ابراراً ... »

قال روبرت وهو يضرب أديم الحديقة بقدميه :

— « أنا عسكري مثل بابا ! »

قلت : « نعم يا روبرت ، عندما تبلغ سنّ التجند تُصبح جندياً . وستكون جميلاً في ثوبك العسكري ، ستكون جميلاً جدًّا ، لـكن اقلّ جمالاً منك اليوم وأنت بأثواب الطفولة . سوف تبسم لك النساء لانهنّ يملن الى الجنود ، ومذهَبُ الاكمام والصدور يسير بهنّ الى عالم

الاحلام . وهذه اليد الصغيرة الضعيفة سوف تكون كبيرة قادرة تؤلم وتشقي وتُميتُ ، سوف تلمس آلات التدمير والهلاك بعزم وثبات ! وعيناك الجميلتان سوف تكونان عينيّ جلادٍ يرى الدماء والدموع دون ان يلين أو يرحم ... وقلبك ، ترى، كيف يكون قلبك الذي لا يُدرك اليوم ولا يشعر إلا قليلا ..؟

« أتكون من الكثيرين الذين لا يحسبون للعواطف في الحياة حساباً ، فيلعبون ويضحكون ويتمتعون ويحزنون دون استبقاء أثرٍ لما يختبرون ، بل تمرُّ الافراح والاتراح على نفوسهم كما تسقطُ دموعُ الغيوم على صفحة الزجاج فلا تترك عليها سوى ما لا يلبث ان يزولُ ... أم تكون من اولئك الذين يشعرون بقوّةٍ وحدّة ويتظاهرون بعكس ذلك كبراً وخجلاً ؟ ... هل تضربك يوماً يدُ امرأة فتضع في عينيك للحبّ دموعاً وتغمد في فؤادك من اليأس خنجراً ؟

« غداً ، يا روبرت ، تنمو جسداً ونفساً ، غداً تقف على أحوال البشر فتجد ذاتك وحيداً في معترك الحياة ؛

أنا والطفل

غداً تعذّبك المسئولية وتضنيك المجاهدة ، ويلذعك لهيب الفـكر وتذيبك نارُ الهيام . غداً تذوق ظمأ الروح . غداً تصير إنساناً ، يا لهول الكلمة ! غداً تصير انساناً أي حيوانا وإلهاً معاً ! . . »

صمتُ طويلاً

وفي ذلك الهدوء الشامل في حضن الطبيعة تصاعدت نغمة حلوة من أطراف الحديقة وانتشر تموجها على انفاس الازهار : وكان ذلك صوتُ المؤذن يُرَدّدُ في الظهيرة ما أنشده في الفجر وما سيعيدهُ عند الغروب

فسألت — « هل سمعت الصوت ، يا روبرت ؟ »

أجاب — « Yees »

قلت — « عمّا قريب تعرف ما هي الميثولوجية ، وما هي النصرانية ، وما هو الاسلام . عمّا قريب تفهم ما هو التعصّب الدّيني والجنسيّ والعلميّ والعائليّ والفرديّ . عما قرّيب تعلم ان الانسجة التي تخاط منها أثواب العرس تصنَعُ منها اكفان الشهداء . عما قريب ترى الاقوام يفتكون

بالاقوام لانهم محتشدون حول قطعة نسيج صُبِغَت بلونٍ غير لون نسيجهم . عمّا قريب ترى كل هذا ، يا روبرت ، وتشترك فيه لانك عسكري مثل بابا ! »

أنا والطفل

* * *

انفصلت عن روبرت بلا قبلةٍ ولا تحية . أنا لم أقبّلهُ لأني وقفتُ متهيبةً أمام رجل الغدِ منهُ . وهو لم يقبّلني لاني لم أعطه كعكاً ولا حلاوى . . .

أنا والطفل

بين عامين

بين عامين

بين شطيّ الماضي والمستقبل يجري نهر الحياة ثملاً بعقيقهِ الفخم ، ليصبّ في بحر الابدية حيث لا جديد ولا قديم ؛ وخيالات البشر تهادى بين جماجم الموت وأغراس الحياة مخفيةً طيّ ضلوعها كثيراً من الآمال وكثيراً من الكلوم

فالى بحر الابدية ، أيها العام الراحل !
وأنت أيها العام الجديد ، إِلينا !

* * *

بين عامين

وطئت الارض طفلاً جميلا ، فنبَّهت في قلوب الشيوخ الحنان وكنت صلة حبّ بين أرواح الخلْصان

امتزجت نسيماتُك بدقائق الاثير فأصبح مغرّداً لامعاً ، وامتشقتَ حسام الصبح ضارباً أعناق جيوش

الظلام فسالت منها الدماء في المشرق وملأت كتائبُ النور الارض والسماء

وداست أعقابك على هام الايام فأفنت قديمها وغدا اليأس أملاً والنواح تهليلاً

هي الانسانية طفلة في هرمها كلما ذاقت عذاباً رجت حظاً ، ولئن مزّقت أحشاءها الضغائن والاحقاد فموجات الحبّ العظيم ما برحت غامرة فؤادها

فاسمع هتافها متخللاً أصوات الصباح : رحماك ، أيها العام ، رحماك !

لقد كتبت اسمك يدُ الزمان على باب الوجود ، فساعدنا لننقش أسماءنا على باب السعادة !

كنّا بالامس نلمس الاوتار فتسيل عليها الدموع مرخية قواها ، فما تسمعنا سوى شكوى المذلّةِ وأنين العبودية . أما اليوم فنريد ان ننعش أرواح العيدان لنوقّع أسمى المبادىء على أعذب الالحان

بين
عامين

رحماك أيها العام الجديد ، الانسانية تتألم فارفق بها !

* * *

بين
عامين

رحماك ، أيها الطفل الحبيب !

تعال نعطيك القبلات السنوية الثلاث : فعلى جبهتك قبلة الرجاء ، وعلى ابتسامتك قبلة الوداد ، وعلى يديك قبلة الالتماس والتوسل

جبهتك مستودع الافكار ، وابتسامتك عبير الازهار ، ويداك رمز القوة المتنقلة أبدية من أدهار الى أدهار

هذه أمانينا نلقي بها عند قدميك فلا تدسها فتلا شينا بل ضمّها اليك فتحيينا

(١٩١٣)

*

نشيد نهر الصفا

عين زحلتا قرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان ، وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيط بها ، وأجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند قدم الجبل . وعلى بعد أمتار قليلة منه يركض نهر القاعة

كل من النهرين يسرد حكايته الابدية على الاشجار المصغية اليهما بحللها السندسية . ويظل النهران في اندفاع وشكوى ، وروح الوادي تئن في اثرهما الى أن تلثم مياههما مياه البحر العظيم

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرّاتُ الاثير ،

هنا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكسير ؛

هنا تنهّدت العطورُ تنهداتها الغرامية ، وتحوّلت الورودُ الى أشعةٍ سحرية ،

نشيد نهر الصفا

هنا اغتسل قوس قُزحٍ ، فترك في الماء من ألوانه ألحاناً فضيَّة ،

ومن دماء الاحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ؛

هنا بعث الافقُ بأسراره الى الارض مع خيوط من الاثير ذهبية ،

هنا نامت الاشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ،

هنا ناحت حمائم الشعر وغنَّت أطيار الانغام ؛

هنا لثمات النسيم شوقٌ وهيام

ومداعبة الموجة الموجة تبادلُ نظرةٍ وابتسام ،

وجمود الشاطىء حقدٌ على فتور الليالي ومعاكسات الأيام ؛

هنا ارتعاش الاوراق على الغصون تحيَّةٌ همت من مقلِ الكواكب وسلام

وتمايُل الافنان ودلالها نجوى ملك الوحي والالهام ،

نشيد النهر الصفا

هنا ليلة انوارٍ وفجرُ ظلام وألغاز ملامس وألوان وأنغام،

حينما يمرّ الفجر على قمم الجبال يرى صورته في هذه المرآة البلورية - يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعها من الآمال النضرة كالازهار ، والاميال المتنقلة كالاطيار . ثم يأتي الغروب ساكباً في اعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقها من النظرات المتحوّلة ، والابتسامات المتغيبة ، والجباه الكئيبة ، والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات

هنا عيدان الاشجان تبكي ، تبكي بقلب جريح . وفي كل لحظة يخيل انها تسلّم نفسَها الاخير بشهيق فيه من اللوعة والكتمان والتجلد بقدر ما فيه من المجد والعظمة ، من البسالة وعزّةِ النفس الابيّة

لكنّ المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تعيد ذكرى الماضي وتهمس بنبؤتها في المستقبل ، وتكرّر أصوات الافراح وتردّد آهات الاتراح

نشر في الصفا

هنا لغزٌ من ألغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان . وأنا لغز أمام هـذا اللغز ، وليلة ازاء هذه الليلة . أهيمُ وحيدةً على الشاطىء الحزين ، انظر ولا أرى ، اسمع ولا افهم ، ابحث ولا أجد ، استعلم ولا اعلم .... فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفيّ ، ونفسي قيثارة الاحلام والالحان . لكني لغزٌ حيٌّ تائه في ظلّ الغصون ، ينظر مستفسراً الى لغز آخر فلا يجد فيهِ إلاَّ صورتهُ ، فيودُّ تمزيقها وسحقها وان أحبَّها !

* * *

نشر في الصفا

عند احتضار النهار ذهبتُ الى رأس النبع وجلست على صخرة قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة. جلستُ وأرواح الخيال تتنشق الاريج العطري المعانق لشعور بنات المياه . وآلهة الاهوية الاربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظلام . وحول اشباحهم تلتفُّ اكاليل البنفسج وقلائد الياسمين ، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم ، بينما أبكار الشعر تسرُّ لاخواتها خفايا اليأس والرجاء

تحت أشجار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً تسكر به الآلهة . ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والانبياء

نشيد
نهر
الصفا

على هذه الصخرة حيث أنا احلم ثملةً بما شربَته مشاعري من رحيق الخيال العلوي ، كان يجلس الامير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كلٍّ منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأنَّ الافكار تتشابهُ في المصدر وفي النتيجة رغم تشعُّبها وتفرُّعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آنٍ ومكان

جميعنا طرح السؤال الذي ألقيه الآن على المياه المتراكضة : هو سرّ الاسرار الغامضة الذي يرجعه صدى الهيا كل المشادة في قدس اقداس البشرية : من أين والى أين ؟ من أين والى أين ؟؟

من أين تأتين أيتها المياه والى اين تذهبين ؟

نشيد ٢٧ الصفا

... من أين أتينا والى أين نذهب ؟ ...

المياه تتدفق اثر المياه مهلّلة مكبرة ، وقد رَفعت أصواتها في الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض الالهي ، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود ...

من أين والى أين ... ؟

ثقل دماغي بأفكار لا أُدركها ، وضاق مني الصدر لهموم لا أَعرف ماهيتها ، فنزعتُ عن ساعدي ساعة وُضعت في اسورة ذهبية ونظرت اليها قائلة : ـ « أيتها الساعة ! انتِ رمز الوقت الجاري في نهر الزمان فيسير قاصداً بحر الابدية . ها انا اغطسك في هذه المياه ... عسى ان تحفظي في حياتك المعدنية أثراً لرموز معنوية » . ثم جمعت بعض الحصى الملونة الجميلة الراكدة في أعماق النهر ، قائلة : « أيتها الجواهر ! سأحملك معي الى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي امام نهر الصفا .. أنتِ ذكر الابدية التي حييتُ فيها لحظة »

واذ رفعتُ عينيّ الى الافق رأيت مقلة الزهرة ترقبُ

يد ملك الظلام الراسمة على رداءِ الليل صورَ الهيئات السماوية

فغادرتُ رأس النبع مردّدةً : أنهر الصفا ! من أين والى أين ؟

* * *

أنهرَ الصفا ! جئتكَ تعبة الروح والجسد معاً

قرأت خلاصة الاحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هديرُ المدافع ، وتمثلت لناظري صورُ الحرب المخيفة . ثم قصدت الاجتماعات فملأ اذني ضجيجها التافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبتُ لبلاهة الانسان وركاكة امياله وفتور همته . اذ ذاك سمعتُ اسمك الموسيقيّ فاحببته لأنّ فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً

لقد احرقت قدميَّ الرمالُ الحارة ، ومزَّقت يديَّ أشواكُ الحياة ، فجئتُ أستخلص من أعشابك بلسماً لجروحي . تعلقَ بأهدابي غبارُ المادة محاولاً إخفاءَ الجمال المعنوي عن عينيَّ ، فأتيت أغسل أهدابي بمياهك المقدسة

جئت لأرطّب يديَّ وعينيَّ برضابكَ العذب

ثَقُل فؤادي عليّ ، فأسرعتُ لأ بعث به معك الى روح البحر العظيم الذي يناديك من عمق أعماق زرقته البعيدة

أنت ابن الغيوم ، وألعوبة الحرارة الهوائية ، وضحكة المادة الدائمة ، وقهقهة الجوّ بين الهضاب والاودية . أنت قبلة الشمس للبحر . انت أَنشودةُ الجبلِ في الوادي . انت الروح الصغيرة المسرعة الى احضان الروح الكبيرة

أنت عميق كأسرار الجنان ، عذبٌ كنظرات الولهان ،

وفي اسمكَ ألوانٌ وألحان ،

أنت تهلم بي ، أيها النهر ، خذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها ، خذني معكَ . . . لكن ، ما هي نسبتي اليك ؟

انت مجموع سوائل لا وجدان لها ، ولا قلب يخفق بين اجزائها . وانا . . . انا شيء آخر . أنتَ لغزٌ بين البحار والآفاق ، وانا لغز بين الحياة واللانهاية . أنا اعرف اني

لا أفهمكَ ، واشعرُ بجهل الانسان وشقائهِ ، أما انت . . .
ما لنا ولك ؟

سيري ، أيتها المياه ، سيري واتركيني . أسقي النباتات والاعشاب ، ضعي لآلىء في ثغور الورود ، رطبي صدر الارض الملتهب ، ترنّمي في وحدة الوادي ، اسردي حكايتك التي لا تنتهي ، اندبي هللي ، اصرخي اهمسي ، انشدي انحبي ، اطربي احزني . كل هذا ننسبه اليكِ ، نحن ابناء النشوة والكآبة

سيري ، ايتها المياه ، ودعيني ابكي . لقد تلبَّد جوّ فكري بالغيوم القاتمة ، وقلبي – ما لكِ وله ! – منفردٌ حزين . . .

(١٩١٢)

الساعة المفقودة

الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حلية نسائية وأتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشرى

صورةً مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتي : مساحتها رمز للفضاء ، دورتها مرسح اللانهاية ، حدودها حدود الامكان ، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتّبه الانسان ، ساعاتها مقياس الاعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقُّبٌ لوفود الآمال ، ثوانيها دقّات القلب . . . من الثواني يتألّف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة نسجاً

فيا لهول ثواني الزمان ، ويا لهول نبضات قلب الانسان !

بين ثانيةٍ وثانيةٍ يلتقي العدوّان في أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميد الارض بمن عليها وتتفطر أساساتها فتقذفُ البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة

زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتحُ صدرها مرحبة بنيها. تفتح صدرها مرحّبةً فيتدحرجون الى الهاوية التي ليس فيها من يعودُ على وجهِ البسيطة مخبراً

الساعة المفقودة

بين ثانيةٍ وثانيةٍ يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء، وتختطف بروق السيوف غالي الارواح. ولأجل كلمة غالبٍ او مغلوب تندكُّ عروشٌ وتنتصبُ عروش، تدمَّرُ ممالك ويعمر سواها، تخرب مدائن ويشادُ غيرها، تتجندل أفرادٌ وتفنى مجاميع فترتدي الاقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الاحزان

بين ثانية وثانية يموت أملٌ ويحيا يأس، تبتسم شفةٌ وتدمعُ عينٌ، يخونُ صديق ويُخلص عدوٌّ، بين الثانية والثانية!

وبين نبضة ونبضةٍ هناك سر الاسرار. دماءٌ منبعثة الى القلب ودماء منبعثة منهُ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها

الساعة: اسس العمر ، وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان .
المفقودة اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ، قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء ، هتّاف الروح المسلّمة ولهاث الروح المودعة

* * *

الساعة: يا ابنة ابيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم
المفقودة الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء : فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساعٍ طيّباتٍ وقعتُ مرورهنّ على دوران عقربيك وفكري يناجيك بأحاديث هداه وضلالهِ ! أبتسم لك عند السرور فأتخيلك صامتةً تبتسمين ، وأتنهد حيالك يوم الاسى فأحسبكِ تتنهدين وتحزَنين ، وكأنَّ عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين

لما أفنت قلبي وحدةُ القلبِ ضغطتُ بك على ساعدي قائلة « أنت الصديقة التي لا تخون » . ولما مزّقت سمعي أكاذيبُ الناس وأحاديثهم المؤذية ، خاطبتك قائلة « أنت

لا تؤذين لانك لا تتكلمين » . ولما أذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته ، نظرتُ اليك قائلة « أنت عالمة لذلك تصمتين »

السماء المفقودة

وكنت تعزيتي ،

وكنت زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول اعراضك عني واقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب انا على هذا العنف بامسة التلطيف . وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقّع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي ، وفي المساء كنتِ اول عينٍ اشاهدها واوّل روح استجوبها

كل ذلك وانت لا تنتبهين

وها قد هجرتني ، ففقدتك وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها !

فاذا وقعت في يد شريرٍ وقصد استعمالك ليؤذي أخاً

الساعة المفقودة

له ، فانقلبي أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلاً

... لكن لا ! لا ، ليس الاشرار الا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم لو كنتِ تعلمين . وهم أخلق بالرحمة من الاخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً ، بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أبٍ فقيرٍ صالح لتكوني نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيّني يداً شوّهت خشونةُ الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبُّب ! نامي هناك واسعدي ، ولوساعة ، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

ان كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة ، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات اذكري واحفظي ما تعرفين

ولكن ألستِ ابنة الزمان الذي ننسب اليه في ضعفنا كل شيء ، وهو في قوّته لا يبالي بشيء ؟ ترين بأي حافظةٍ

تذكرين ، وبأيّ ذهنٍ تتأمّلين ؟ انمّا علاماتك مدادٌ قد تحجّر ، وعقربك اصبع يشير الى علامة يجهل منها المعنى ، وأنتِ آلةٌ ليس إلاَّ ـ وان كنت آلة الآلات المثلى
أنتِ ابنةُ الزمان الناسي ،
وانت مثله لا تذكرين !

الساعة المفقودة

*

يا سيدة البحار!

يا سيدة البحار

أسمعتِ ما طيَّرته عنكِ البروقُ وما قالته فيك الانباء؟
لوزيتانيا! أبلغكِ ما بلغنا وتعرَّفتِ ما يكتبُون؟
قولي!

هل تمرّدت أرواحُ الكهرباء في الفضاء وثارت قوّاتُ العناصر في أعماق السماء، أم هجمت أُسُدُ البحر على الاسلاك الممدودة تحت الماء طالبةً من معارف البشر لداءٍ خفيٍّ شافي الدواء؟

قولي! اسمعت بما أذاعتهُ عنكِ الانباء؟
لوزيتانيا، أجيبي!

أنت التي خضعَت لها رقابُ الامواج أعواماً، ولثمت المياهُ موطيء قدمها شهوراً وأياماً، انت التي ذاب لحرّ أنفاسها جليدُ البحار القاصيات وابتسمت لقدومها شموسُ السواحل الدانيات، أيتها الهازئة بهيجان العواصف، وثورات

اللجج وغضب البراكين ، يا صلة العمران النشيطة بين العالمين !

ياسيرة البحار

يقال انك غارقة يا ذات الدلال السائر ، ويُذاع انك مندحرة يا قاهرة العنصر القاهر ، أصحيح ما يقولون وما هم مذيعون ؟ أتقعين صريعة نيران الجبّارِ العنيد ؟ أتتضاءلُ منكِ القوى ازاء بطشه فيذوبُ منكِ حتى صلبُ الحديد ؟

انتِ التي قطعت المسافات الشاسعات ببسالةٍ باسمة وملأتِ وحشة البحار الواسعات بزفرات الانسان واصواته ، انت الآملة بكل شيء لانك يائسة من كل شيء ، أيتها المرأة المتنمّرة ، كيف لم تجيبي على صواعق الانسان بصواعقك المنتقمة ؟

أَلا تذكرين يوم غادرتِ العالم الجديد تحملين للاجسام طعاماً وتنقلين للنفوس غذاءً ، وتمثال الحرية يحيّيك بقبسهِ المحيي ويتمنى لكِ سفراً سعيداً ؟ يوم شيّعتكِ أنظارٌ وقلوب وقد أودعتك أموالاً وأسراراً وأرواحاً غاليات ، ألا تذكرين ؟ كيف لم تصوني وديعتك سائرةً بها الى مرفإٍ

باسيرة البحار — الأمان سالمة ؟ كيف لم تحرصي على ما ضممتِ الى قلبك ، ايتها العاشقة الصامتة ؟

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

لقد ذقتِ رعشة الموت ، يا ضحية الحياة ! وعرفتِ معنى الابدية ، يا أثر الفكر الزمني !

في احضان المياه الدامسة حيث لا شموس ولا كواكب ولا اقمار ، حيث يتموّج من العناصر الاسوداد والاخضرار ؛ حيث لا كلام سوى دمدمة العواصف الهائجة على صفحة الماء ، ولا صوت غير صدى الصواعق المنبثقة من جبين الافق لتخترق وجنة الغبراء ؛ حيث تمرُّ افكار البشر على الاسلاك البحرية صامتة ؛ حيث لا انين ولا نواح ولا انشاد ؛ في احضان المياه الغدافية ، في الهاوية المرعبة هناك تندثرين ، تندثرين في كهوف نبتون السائلة وفيها متلاشية تقطنين . هناك تحتضنين وديعتك التي لم تستطيعي صيانتها في الحياة ، فتكونين في الردى لها من الصائنين

يا سيرة البحار

هل من دمعةٍ تصلُ اليكِ مخترقةً مياه البحار ؟ هل من قبلةٍ تهبط نحوكِ مداعبةً ما لديك من الاسرار ؟ لكن قد كفنّكِ السكوت الدائم والجمودُ المتحرّك الذي لا قبلات لديه ولا دعابة ولا عبرات

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لكِ البشر من البشر ، سوف يقيم التاريخ لكِ ولاخواتك جميل الآثار ، سوف تنظم لك الاناشيد ويعزف لذكرك طروبُ الآلات

واذا سُئلتِ في أعماق الهاوية عن الانسان الذي أبدعك واستخدمك قولي انه ما زال كبير المطامع موفور الغرور ، وأنه في غروره قد أحبّكِ وبكاكِ . واذا سألتكِ روح الهاوية مذهولة : اذاً كيف فتك بكِ ؟ اجيبي بما يقولونه في ربوعنا من ان الذي قضى عليك ليس التحالف الملقّب بالانساني ، بل المبطاش المنعوت بالجرماني . . .

(١٩١٦)

بكاء الطفل

بكاء الطفل

سمعتُ الطفل يضحك فاختلجت روحي الاثيرية في جسدي الترابيّ . ان صوت هذا الرضيع ليرجع صدى أصوات الملائكة ، وضحكته البريئة المطربة لتحثّ المفكر على اكتناهِ الأسرار الأزلية الغامضة

ثم سمعتُ الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً وشعرت بشيءٍ كبيرٍ يذوب فيه . أوّاه من بكاء الاطفال ، انه اشدّ ايلاماً من بكاء الرجال !

سمعتُ الطفل يبكي ورأيت العبرات تتحدّرُ على وجنتيه الورديتين ، فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نارٍ تكويني

ظلّ الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس باديةٌ على محياه الوسيم . ظلَّ يبكي بكاءَ متروكٍ منفردٍ لا يحبُّهُ في الدنيا أحد . الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيدُ التألّق الى

عينيه ؟ كيف أسمع في ضحكتهِ صدى أصوات الملائكة مرةً أخرى ؟

* * *

فدنوت منهُ متوسلةً ،

وضممتهُ اليَّ بذراعي التي لم تضمّ يوماً أخاً او اختاً صغيرة ، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباءِ ، ورفعتُ عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيدٍ ترتجف كأنما هي تامس شيئاً مقدساً

بكاء الطفل

... ثمّ وضعتُ على تلك الجبهة شفتيَّ ساكبة في قبلةٍ كلَّ ما يحوم في جناني من شفقةٍ وانعطاف . ترى من ذا ينبّهُ الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعلُ الطفل الباكي ؟

صمت الطفلُ حائراً لأنهُ شعر بأن روحاً تناجي روحه. صمت هنيهة ، ثم عاد فحدَّق فيَّ بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أتعرفون كيف تحزن عيون الاطفال ؟ أتعلمون كيف تعنّفُ أحداق الصغار؟ حدَّق فيّ سائلاً عن أعزّ عزيز

لديه، وقال بصوت هادىء كاصوات الحكماء : ماما ، ماما!

* * *

بكاء الطفل

صغيركِ يناديك فلماذا لا تجيبين ، ياأم الصغير ؟
لستِ بالعليلة لاني رأيتك منذ حين تميسين بقدّكِ تحت
برنيطتك ، والجواهر تطوّقُ العنق منك . أنت صحيحة
الجسم ، فلماذا لا تُسرعين ؟ ألا تحرقكِ دموع الطفل الذي
لا ترَيْن ؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين ؟

عودي من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة ،
وأحاديثك السخيفة ، عودي واركعي امام الصغير
واستميحيه عفواً

لقد خُلقتِ امرأةً قبل ان تكوني حسناء ، وكيَّفتك
الطبيعة أُماً قبل ان يجعلك الاجتماع زائرة

تعالي اسجدي امام السرير ، سرير الصغير !

اسجدي امام هذا المهد الذي لعبتِ بين ستائره طفلةً،
وحلمتِ به فتاةً ، وانتظرته زوجةً ، فما خجلت ان تهمليه
أُماً . اسجدي امام المهدِ فان المهدَ محجّتك القصوى !

اسجدي أمام السرير ، ولا تدعي ربَّ السرير يبكي بكاء الطفل
لئلاَّ تملأ قلبه مرارةُ الوحدة ، حتى اذا ما شبَّ رجلاً
تحوَّلت المرارة كرهاً وصرامةً

اسجدي امام السرير وناغي الصغير ! ان دموع
الاطفال لأشد ايلاماً من دموع الرجال

*

دمعة على المغرد الصامت

دمعة على المغرد الصامت

ما أسرع ما تتمزّق أثوابُ الورود، وما اتعس القلوب الشديدة التأثر!

يمرُّ النسيمُ العليل على الازهار النضرة فتتشقّق بوطئهِ جلابيبها وتنتثر وريقاتها. كذلك تكفي ملامسة الالم للنفس المنفردة ليثير منها الاشجان ويستقطر من محاجرها العبرات

مِن الرجال مَن يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر، ومن النساء من لا يفهمن الحياة الاّ بالزينة والغنى وارتفاع القدر

اما انا فلا هـذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب تستهويني. شيءٌ واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبهِ قسم كبير من الفكر وقسم اكبر من القلب. شيءٌ واحد ينبّـه اعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا ـ هو زهرة نادرة المثال شمس الذكاء والمعرفة تحييها ومياه العواطف العذبة ترويها

ما أتعس القلب الحساس وما ألينهُ لاستحكام الجراح في ثنياتهِ !

* * *

دمعة على المغرد الصامت

طائر صغير نسجت أشعةُ الشمسِ ذهبَ جناحيهِ وانحنى الليل عليهِ فترك من سوادهِ قبلةً في عينيهِ. ثم سطت عليهِ يدُ البشر فضيّقت دائرة فضائهِ وسجنتهُ في قفص كان عشّهُ في حياتهِ ونعشهُ في مماتهِ

طائر صغير احببتهُ شهوراً طوالاً .. غرّد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصهُ ، ونادم وحدتي فملأها ألحاناً

امتزج ذكرهُ بحياتي فحلّ عندي محلّ صديق لا تصلني بهِ اللغة ولا يقربهُ مني التفاهم الروحي ، بل يعزّزهُ اليّ حضورهُ الدائم وان لم يبالِ هو بحضوري ، وصوتهُ الرخيم وان لم يغرّد الاّ لأن التغريد من طبعهِ ، وسرورهُ الذي لا يعرف الكآبة ، واصطبارهُ على ضيق الفضاءِ وقناعتهُ بما قُدِّر له من النور والهواءِ

دمعة على المغرد الصامت

لمَّا ابكتني الآلام أريتهُ منديلي مبلَّلاً بالدموع فأعرض عني . انما تستدرُّ الدموع ظلمةُ الاحزان كما يستدرُّ الندى ظلامُ الليل ، وروح الاطيار شعاع مغرِّدٌ فكيف يتفهَّم النور الظلام ؟

ثم اشرت بيدي الى الاثير البعيد لعلّي ارى من طائري زفرة تنبئني عن لوعة في قلبهِ . ولكنه اخذ يتنقل على قضبان قفصهِ غير مبالٍ بي ، كمن يقول : « النورُ لا ينظر الى الشمس والقلب لا يحدِّق في الروح لان كليهما واحد . انا لا انظر الى الاثير لأن فيَّ نقطة منهُ . اني فيهِ وان بعدت عنهُ . كالشاعر الذي يظلُّ محلّقاً في سماءِ الخيال والمعاني وان وثق الناس من انه يجالسهم مصغياً الى احاديثهم »

واذ اتيتهُ بالازهار نازعةً عنها وريقاتها فارشةً بها مهبط القفص لعلّي ارضيه ، شرع يدوسها استخفافاً متابعاً تغريدهُ . كأنه فيلسوف لا يكترث للصغائر وان جملت منها المظاهر ، ولا يهتمُّ الاَّ بما ينبّه قوى البحث والتفكير في جنانه

في الصباح كنت افتح عينيَّ فيستقبلُ استيقاظي بالغناء

وتسيل موسيقى انغامهِ على قلبي فتذيبهُ وتسكره معاً

وفي النهار كنت اجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي احياناً من عبوس الكتب ، ويثقل يراعي في يدي كانه صولجان تنازل عن ملكه؛ فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد ، وتأتي جماعة طير من الخارج فتتوحَّد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج الالحان في قلب الامواج . اذ ذاك تبتسمُ الافكارُ على صفحات الكتب امام ناظري ، ويتمايل قلمي تمايل الصفصاف قرب الغدير ، وتنجلي الغيوم عن صفحة نفسي وتطرب روحي

دمعة على المغرد الصامت

وفي المساءِ كان الكنارُ يصمتُ إجلالاً لقداسة الظلام فيخفي رأسهُ بين جناحيهِ ، ويجمد جمود المفكّر . ساعتئذٍ تأتي بنات خيالي محلولة الشَّعر وورد الابتسام منوّرٌ على شفتيها ومصباح الشِعر متّقدٌ في عينيها . فتعقدُ حلقةً وتدور راقصة حول احلامي وتنشدة اناشيدها بألحان سرية كأعماق اللجج — اناشيد عجيبة لم يسمعها الاَّ خيال روحي المتهادي بين اولئك العذارى الراقصات . ولم افهمها الاّ بحاسة

دمعة على المفرد الصامت

سادسة تنبثق في قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة .
بدا ملوك الجوزاء تطلّ من اعالي علاها ناظرة اليّ من
نافذتي المفتوحة على آفاق الليل ، والكنار يرقبني بعينيهِ
المخفيتين تحت جناحيهِ الذهبيين

* * *

دمعة على المفرد الصامت

والآن . انظر الى القفص !
لقد صمت الطائر المغنّي ، وجمد الشعاع الحي ، فلا
ترى في القفص الاّ قليلاً من الشمس المائتة !
مات الصغير الغرّيد ، مات صغير حشاشتي !
مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضاء الربيع ، ولا
يبقى في خاطري الاّ اثرٌ من ذلك اللحن المتواضع البديع
شعاعٌ ذهبيٌّ أطلّ حيناً واختفى في كبد الآفاق ،
ابتسامةُ لطفٍ اشرقت ، وما لبثت ان توارت في
أخفية الظلام ،
نورُ فكرٍ ضاء ثم اضمحلّ في لجج العدم ،
وردةُ اثيرٍ تنفست فعطرت واسكرت . ثم ذبلت ،

نغمةُ حبٍّ تموَّجت ساعة ، ثم تلاشت في هاوية السكينة ،

صديقٌ صغيرٌ غرَّد فأطربني ، وسكن في جواري فآنسني ، ولما مزَّق قلبي العالم بشرّهِ وصغائرهِ غنّى طائري فأنساني قبح القباحة وجعلني أفكر في كل حسنٍ بهيٍ

هـذه قيثارتي فقدَت أحد اوتارها فناحت بلابلُ انغامها ،

فما اتعس القلوب الشديدة التأثرِ ! وما امرَّ الجرح الصغير الذي يفتحُ جراحاتٍ كبيرات !

دمعة على المفرد الصامت

* * *

سرُّ الوجود وسر الفناء من يستطيعُ اكتناههما ؟

في كلّ ذرةٍ من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة وشوق مبرح للنموّ وبلوغ اكمل الحالات الممكنة . فما غاية هذا الشوق ، ولماذا وجد ذلك الظمأ ، اذا كان الفناء كعبة الكمال ونهايته ؟

أتلاشى ما كان في طائري من أنسٍ وايناس ؟ أضاعت

دمعة على المفرد الصامت

نفسه الصغيرة الحلوة في الاثير كما امتزجت تغاريدهُ بامواج الهواء وعناصر جسمهِ بالتراب والماء ؟ أم هو يحفظُ جوهر ذاتيته ويظلُّ هو هو في مجاهل الفضاء ؟

على مَ وُجد ولماذا قضى ؟

ألهذا الفناء ترقّى نوعهُ حتى صار طائراً غرّيداً ؟ أعاش يوماً وكان من نصيبي لكي يطربني ثم يوحشني ، يزيل كآبة نفسي حيناً ثم يتركني حائرة في أمره وامري ؟

اين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض ؟

وانتم أيها الموتى ، اطياراً كنتم ام بشراً ، ألا تنطقون مرةً واحدةً لكي تفضوا الينا بما طُوي من الاسرار وراء حُجُبِ الردى ؟ أَلا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الاولى من اللغز الازليّ السرمديّ الكامن في ضمير الوجود ؟

*

الكتاب الثاني

نحو مرقص الحياة

... ولما انتهى دور الوقوف في السكوة وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة ، جاهلة من ذا يسيرني واياهم وبأي دافع هم يسيرون . فتناولني حيناً دوار الاختلاط بالجمع الكبير ، الا ان الشخصية العامة لم تستول عليّ فتغرق في قدرتها عجزي . بل بقيت انا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والرزايا . ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس فيّ سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم فيّ ناره . ففهمت أمراً آخر وهو انه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الاليم والاستشهاد ؛ واذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الايام ...

*

*

*

نحو مرقص الحياة

نحو
مرقص
الحياة

في ليلٍ مسترخي السدولِ سرتُ على شطِّ بحر الايام مع السائرين . سرتُ نحو مرقص الحياةْ في ليلةٍ غار نجمُها وادلهمّ ديجورُها ؛ على شطِّ بحر الايام سرتُ مع السائرين

بين ما طمستهُ عصورٌ وخلّفتهُ عصورٌ وشادتهُ عصورٌ ، على شطِّ بحر الايام سرتُ اتلمّس سبيلاً قريب المنفذِ نظيفاً أنيقاً ، لئلا تلطخُ الاوحال نعلي الاغريقيّ الأبيض وتمزّق السمومُ وريقات زهرةِ رأسي ، زهرة الياسمين التي زنتُ بها رأسي

أنوارُ المرقص هناك عيونٌ تناديني ، وفي كلٍّ من قدميّ جناحان يحثّانني على الرقص قبل الوصول . يا لطول الطريق المتشعّبة في الدجى ، يا لطول الطريق ويا لهول الطريق ! ترى أليس من هادٍ يهديني بين جماهير السائرين ؟

* * *

نحو مرقص الحياة

جاءَني خيالٌ سائلاً وفي صوتهِ لهجةُ المتأدّب — الي أين تقصدين ؟

قلتُ — أرأيت القصر العظيم الذي تتهامسُ في صدره أسرارُ الألحان ، ونوافذهُ ألحاظ أنوارٍ تناديني ، أرأيت القصر العظيم؟ انما اليه أقصدُ لأنهُ مرقصُ الحياة

قال — وما عملي إِلا قيادة الناس إلى المرقص ، قيادة من شاء من السائرين

قلت مبتهجة — أصحيحٌ ما انتَ قائل ؟ ومن انت اذن لتفعل ما انت فاعل ؟

قال يقدّم نفسهُ — انا الغريب . انا الغرباء . أنا التاجر والطبيب والمهندس والمحامي والنائب والحاكم . انا العامل والخادم ، والباني والهادم ، وأنا المتّهمُ والقاضي . أتعاطى جميع الحرف ، واعمل للناس وهم لي يعملون . اخدمهم في بابي ليكون كلٌّ منهم لي في بابه خادماً . اقدّم لهم ما لا يحصلون عليه بدوني ، واعقد فيما بينهم بروابط لولاها ما تبودِلت فائدة ولا اشترِكَ في منفعة . انا الغريب

الذي تجعلهُ المصلحة قريباً لكلّ غريب

نحو مرقص الحياة

قلت — عرفتكَ ياسيدي . هذا سواري أُعطيكهُ ، فقُدني نحو مرقص الحياة

في مركبة الغريب سرتُ مسافةً طويلة . قطعنا جبالاً وأوديةً لم أرَ منها الصعاب ولم تتعثَّر قدمي فيها بالصخور . وإذ وصلنا سلسلة الاطواد المتساندات في حدود الافُق ودَّعني الغريبُ لأنَّ مركبتهُ لا تستطيعُ المسير، ودَّعني الغريبُ ومضى

* * *

دارُ المرقص اقتربتُ منها قليلاً ولكن بيني وبينها سلسلة الاطواد المتساندات . رأيتُني وحدي . فلذعني البردُ ، وهدَّدتني دياجير الآفاق ، وشاكتني اشياء لم ألمسها بيدي . واذا بخيالٍ يقتربُ متعمّداً مماشاتي . فوقفتُ واجفة وسألت — من انت الذي تعترضني في طريقي ؟

نحو مرقص الحياة

أجاب وفي صوتهِ شرٌّ واستهزاءٌ مهين — مَن أنا ؟ أنا

نحو مرقص الحياة

الدياجير المهدّدة ، وانا الاشياء الشائكة في الظلام . انا النميمة والاغتياب والوقاحة والشراسة والامتهان . انا الشفة التي تبتسم هازئةً لأنّ وراءها انياباً تنهش نهشاً . انا اليد التي تضربُ لتثأر بلا ثأر ، انا القلب الذي يكظم الحقد والضغينة بسببٍ وبلا سبب . انا الكيدُ والغيرة والخبث والحسد ، وانا الذمُّ القبيح المختبيء وراء شهد التمليق وتكلف السكوت انا العدوّ . انا الاعداء

قلت مرتعشة — لعلّك تعني سواي بهذا الكلام . انا لا اكرهُ احداً ، ولا أحقدُ على احدٍ ، ولا اعداء لي . واذا صدر مني أذًى فاما عن سهوٍ واما عن سوء تفاهم ، وانا اول من يتألّم له بعد حدوثه

اجاب وقد تضخّمت معاني البغض في صوته — بل اياكِ اعني ، انا عدوكِ انتِ ولا استطيع ان اكون لكِ إلا ذلك . عبثاً تتحاشين طريقي ، وعبثاً تتبعين سبل الحذر والتحفُّظ . سوف اؤذيك بأصغر الاسلحة ، واوفرها اقتداراً واحدّها مضاءً ، وابعدها عن منطقة العقوبة : اللسان

وبينا كلمات تنقضُّ عليَّ كالصواعق ، توارى عني ففطنت لنفسي . فطنت لنفسي فوجدتني اقطع نفقاً ضاق منهُ الجوُّ وثقل فيه ضغط الهواء ، حتى خلته قبراً ملأته عقارب توجعني وحيات تلسعني وألسنة لهيبٍ تكويني . سرتُ هائمة والعبرات متحجّرات في اقاصي قلبي . ولما ان عثرتُ على منفذٍ اخرجني من النفق الرهيب وجدتُ نحسي يأساً والاجنحة في قدميّ اغلالاً . خلفتُ سلسلة الاطواد المتساندات ولم يبق بيني وبين المرقص إلاّ منبسطات السهول . عندئذ بكيت ثم مسحت دموعي المتسابقات لأفسح مجالاً لدموع جديدات . ثم قلت : ترى لايّ شيء يوجد في الوجود شيء ؟

نحو مرقص الحياة

* * *

بلطف النسيم امتدَّت اليدُ اليّ . يدٌ ترسلُ انامِلها نوراً ، وتبعث من حركاتها حرارةً تدفىء روحي . ولما ان اجفلتُ قال صاحب اليد — هاتِ يدك

نحو مرقص الحياة

نحو مرقص الحياة

فنظرتُ الى الخيال قائلة — كفاني ما لقيتُ من الخيالات في طريقي . اني لا اطلب مساعدة احدٍ وقد عدلتُ عن الذهاب الى المرقص ، فدَعني وحيدةً في كآبتي دعني في سآمتي ويأسي وحيدة

قال — لا استطيع ان ادعك هنا، ولا انت تستطيعين إلاّ قبول مساعدتي

قلت — كيف ذلك ؟ ومن انت ؟

قال وكأن ابتسامات الملائكة قد تجمَّعت في صوتهِ اخلاصاً وحلاوة — انا الصديق. انا ذاك الذي يشعرُ ويدرك ويفهم ويعلم . انا ذاك الذي يعلم . انا التعزية وموضع الثقة والامان . انا الصديق

قلت — لا ثقة لي بأحد . وانا لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك

قال — ارادتك وعكسها عندي سيّان . هذه السهول لا يعرف خفاياها غيري . طريقك فيها وليس لكِ من دليل غيري . وعندي لكِ رسالةٌ وقد جئتُ مرغماً لأبلغها اليك

قلت — ممَّن هذه الرسالة وما هو مضمونها ؟

قال — لا ادري . لقد دفعتها اليَّ يدُ الخفاء ، وحجمها في نفسي يدلُّني على انها ليست لي . ثم زاد وفي صوته الحاحٌ وكآبة : خذيها هي لك ! وستعلمين سرها ساعة تأخذينها وتناوليني رسالة اخرى لي عندك . كذلك قال الصوت المجهول الذي بعث بي الى هذا المكان . خذي ما لك واعطيني ما لي !

***

الى بحر الايام حوَّلتُ نظري طالبة ارشاداً . الا انَّ صوت الامواج متشابهٌ لمن لا يسأل ولكنَّ في أنة الامواج لكلِّ سائلٍ جواباً . فارتفع الحبابُ قليلاً قليلاً ونمق لي الاشولة بحروفٍ فضية : « يقسم المرء الناس الى غريب وعدوّ وصديق . فذاك يبتغي الدرهم متاجراً متأدّباً ، والآخر لا يظهر الاّ معانداً معذباً منتقماً ، وهذا يتكلم باسماً ودوداً فينطلقُ صوتهُ وبسمته الى سويداوات القلوب . ويستقرُّ صوتهُ وبسمتهُ في سويداوات القلوب . وما كان كلٌّ من

نحو هؤلاء الاّ مؤدّباً مرشداً الى سبل الحياة، وما كان كلّ الاّ
مرقص استاذاً يُدرسُ عليه ما لا يُعلمُ من سواه ، لانهُ يحمل في يده
الحياة رسالةً خفية قد اؤتمن عليها من آلهة الغيب والاسرار »

* * *

نحو على شط بحر الايام سرتُ مع السائرين . ومن منهل
مرقص الغبطة المتدفّق فيَّ سكبتُ تعزية ومن الشمس المنيرة في
الحياة جناني وزّعتُ انواراً على الذين معي من السائرين . وزعت
من شمس جناني أنواراً ومن منهل غبطتي تعزية على
المحزونين من السائرين

الذكرى الجديدة

الذكرى الجديدة

أصبحتُ اليوم وبين يديَّ ذكرى جديدة حارّة تتضوّرُ وتتأوّه وتتلوّى كالنفس المترددة بين البقاء والانتحار. وأخذتني منها شفقة فحملتُها برأفةٍ الى معبد الادّكار القائم في أعماق روحي

عبرتُ العتبة متأنية والتهيب يلاشي وقع خطواتي، وجثوتُ بين تذكارات متبحّرات في شفق التأمل العميق حيث لكلّ ميتٍ مضى اسمٌ ولكلّ حدثٍ انقضى رسمٌ. فتقلّصتِ التذكاراتُ من ذواتهن الهيولية وحنين عليّ هامسات وقلن «نحن فيكِ وأنتِ فينا»

فردّدت همسهن وقلت «انا فيكنّ وأنتنّ فيّ»

ونهضت بالذكرى الجديدة أعيّنُ لها مستقراً فاستوت على متوسط المذبح - وأخذت أنسّق امامها طاقات الازهار، وانثر على جوانبها فرائد العطر والندى، واوقد حولها الشموع

الذكرى الجديدة

والمصابيح وأذكي نار المجامر بالمر واللبان ، ثم وقفتُ أرقبها بانشراح اذ رأيت الهدؤ يباغتُ اضطرابها وتوجعها

وفي النهاية مشيت متراجعةً الى المدخل . وبعد نظرة الوداع غادرت معبد الادكار وبي ارتياح من أدَّى واجباً عزيزاً وفخر من أتى أمراً عظيما

* * *

الذكرى الجديدة

والآن ستتسارع الشهور حتى تنتظم أعواماً ، وتتساند الاعوام حتى تترتب عقوداً ، ويتقاذفني موج العمر فلا أعي يوماً إلاَّ وأثر ذكراي الخفي يبدو في جميع أعمالي

فاذا تكلمتُ واتخذ صوتي قراراً بعيداً كان متكلماً فيه صوتُ ذكراي

واذا أحرجني موقفٌ فأحجمت ، فهممتُ فأقدمتُ ، فتجاوزتهُ الى غيره كان الفضلُ لأمثولةٍ ألقتها عليّ ذكراي

واذا سرتُ أحياناً بخطوات يخلن لتريثهن مفكراتٍ بأرض يطوينها ـ كان ذلك التباطؤ هوًى من أهواء ذكراي

الذكرى الجريرة

واذا استفزّني التحمّس لمظلوم واستبسلت في الدفاع عن ذي حقٍّ فما ذلك إلاّ مكافحة لطغيان استدرّ الدموع والدماء من قلب ذكراي

واذا شعرت يوماً بزمهرير البحار المتجلّدة يجاورُ في كياني تأجُّج الرمضاء المستعرة، وتلاطُم بين جوانحي هبوبُ الصرصر بلوافح السموم فما ذلك سوى ثورة جديدة تقومُ بها عناصرُ ذكراي

واذا شمتُ خيرات العالم فقراً وازدحام العالم قفراً فلأنّ لا ائتناس ولا غنًى في غير عالمٍ تبدعهُ ذكراي

واذا رآني جليسي وناظراي يخترقانه الى أبعادٍ شاسعات فلأنّي ألمحُ بين طبقات السحب خيالاً من ذوي القربى لذكراي

واذا غاحي بغتةً واحتوى الموجودات بقوّة،كأنّ الروح الكليّة اتخذتهُ لحظةً رسول عطفها على الخلائق فما ذلك إلاّ اختمار فطير ذكراي

***

الذكرى الجديدة

وعنـدما أعودُ الى منشإِ الـكائنات ومرجعها وأرقد بين جلال المدافن في قبري الضيق حيث تنقلبُ صورتي البشرية تراباً، فهباء، وينحلُّ ما ارتبط من اسمي الصغير فلا تمثلُ الميم منهُ والياء سوى حرفين من حروف الأبجدية فحسبُ، يومذاك سيكون التماسكُ والحياةُ نصيب ذكراي

وبعدئذٍ ستمرُّ الذراري الجديدات وتحلّ محلّها الذراري اللاحقات. فتجلس فتاةٌ في صباح خريف شجيّ كهذا الصباح على مقربة من نافذتها وراء الاستار المخرّمة وترسلُ نظرها الى الافق الذابل يتفتنُّها سحرُ الطبيعة ساكباً أنوار الفجر في نقيّ السحاب. وتسأل نفسها «أين السعادة؟» فتتملكها رغبة فجائية في ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطوديّ واثقةً من أن السعادة كلّها في اعتلاء متن النور والهواء

فتاة المستقبل سترجع بعد حين وتضحكُ من رغبتها قائلة «ان هذا لجنونٌ!»

أما أنا ابنة الحاضر فاعلم منذ الساعة أن تلك الرغبة الذكرى
في النفس الصغيرة المجهولة سوف يثيرها عمل الذكرى التي الجزيرة
أدخلتُها معبد الادكار ووضعتها على المذبح حارَّة تتضوَّر
وتتأوَّه وتتلوَّى كالنفس الحائرة بين البقاء والانتحار

*

العيون

العيون تلك الاحداق القائمة في الوجوه كتعاويذ من حلك
وجين
تلك المياه الجائلة بين الاشفار والاهداب كبحيرات
تنطقن بالشواطى، وأشجارِ الحور
العيون ، ألا تدهشك العيون ؟
العيون الرمادية بأحلامها
والعيون الزرقاء بتنوُّعها
والعيون العسلية بحلاوتها
والعيون البنيَّة بجاذبيتها
والعيون القاتمة بما يتناوبها من قوة وعذوبة

* * *

جميع العيون
تلك التي تذكركَ بصفاءِ السماء

العيون

وتلك التي يركدُ فيها عمقُ الهموم
وتلك التي تريكَ مفاوز الصحراء وسرابها
وتلك التي تعرجُ بخيالك في ملكوت أثيريّ كلّهُ بهاء
وتلك التي تمرُّ فيها سحائب مبرقة مهضبة
وتلك التي لا يتحوّل عنها بصركَ الاّ ليبحث عن
شامةٍ في الوجنة
العيون الضيقة المستديرة ، والعيون اللوزية المستطيلة
وتلك الغائرة في محاجرها لشدة ما تتمّعُ وتتبصّر .
وتلك الرحيبة اللواحظ البطيئة الحركات
وتلك التي تطفو عليها الاجفانُ العليا بهدوءٍ كما ترفرفُ
أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال
وتلك الاخرى ذات اللهيب الاخضر التي تلوّي شعاعها
كعقافة كلاّبٍ على القلب فتحتجنهُ ، وغيرها ، وغيرها ،
وغيرها
العيون التي تشعر
والعيون التي تفكّر

العيون — والعيون التي تتمتَّع
والعيون التي تترنم
وتلك التي عسكرت فيها الاحقادُ والحفائظ
وتلك التي غزرت في شعابها الاسرارُ

* * *

العيون — جميعُ العيون وجميع أسرارِ العيون
تلك التي يظلُّ فيها الوحي طلعةَ خبأة
وتلك التي تكاثفت عليها أغشيةُ الخمول
وتلك التي يتسع سوادُها أمام من تحبّ وينكمش لدى من تكره
وتلك التي لا تفتأ سائلة « من أنت ؟ » وكلما أجبتها زادت استفهاماً
وتلك التي تقرّر بلحظةٍ « أنت عبدي ! »
وتلك التي تصرخ « بي احتياج إلى الألم أليس بين الناس من يتقنُ تعذيبي »
وتلك التي تقول « بي حاجة الى الاستبداد فأين ضحيتي »

العيون وتلك التي تبسمُ وتتوسَّل

وتلك التي يشخص فيها انجذابُ الصلاة وانخطاف المصلّي

وتلك التي تظلُّ مستطلعةً خفاياك وهي تقول « ألا تعرفني ؟ »

وتلك التي يتعاقبُ في مياهها كلُّ استخبارٍ ، وكلُّ انجذابٍ ، وكل نفيٍ ، وكلُّ اثباتٍ

العيون ، جميع العيون ، ألا تدهشك العيون ؟

* * *

العيون. وأنتَ ما لون عينيك ، وما معناهما ، والى أيِّ نقطة بين المرئيات أو وراءها ترميان ؟

قُمْ الى مرآتك !

وانظر الى طلسميكَ السحريّين ، هل درستهما قبل اليوم ؟

تفرَّس في عمق أعماقهما تتبيّن الذات العليمة التي ترصدُ حركات الأنام وتسطير دورة الأفلاك والأزمنة

العيون في عمق أعماقهما ترى كل مشهد، وكل وجه، وكل شيء

واذا شئتَ أن تعرفني ، أنا المجهولة ، تفرَّس في حدقتيكَ يجدْني نظرُكَ في نظركَ على رغمٍ منك

*

الحكيم وطالب الحكمة

كان يتكلّم والطلبة حولهُ ينصتون
كان يتكلّم عن ذلك الاتّجاه الفكريّ في القرن التاسع للهجرة ، وقد دعاهُ العرب « فلسفة طبيعية »
فاستطرد الحكم قائلاً — « وسُمي هذا الاتجاه أيضاً فلسفة على الاطلاق من حيث أنه مقابل لفلسفة المتكلّمين أو الفلسفة الكلامية

الحكيم وطالب الحكمة

« وكان الطب أهمّ مباحث تلك الفلسفة المشار الى المشتغل بها بالمزج المعتاد بين لفظتيّ حكيم وطبيب
« واستمرّت تلك الابحاث الى القرن العاشر ،
« فكان أشهر القائمين بها الطبيب الرازي (المتوفى عام ٩٢٣ أو ٩٣٢)
« عديدة هي الكتب المنسوبة الى الرازي . وأكثرها

الحكيم رسالات وجيزة . وقد تشتّت جزءٌ يذكر منها في مكاتب
وطالب مختلفة
الحكيم: « ومن تلك المؤلفات كتاب في الكيمياء القديمة أهداهُ الرازي الى أمير خراسان ، منصور بن اسحق الساماني

« ولما عجز الرازي عن أن يبرهن عملياً عمّا أثبته في كتابه مبدئياً ،

« ضربهُ الامير على وجهه ضربةً أزالت بصرهُ . . . انظروا الى هذا التوحّش ! »

أحد الطلبة — « فعل الامير ذلك لأن الاعتقاد بفعل الكيمياء القديمة ضربٌ من الاوهام . وملاحقة الاوهام توجب الردع . فعمل أمير خراسان لم يكن اذاً توحشاً بل عقاباً عادلاً »

الحكيم (بعد سكوتٍ قصير) — « اذن أنتَ ترى ان هذا الرجل استحق فقد عينيه لانه كان يلاحق ما دعيتهُ أوهاماً ؟ »

الطالب —.« نعم »

الحكيم (بعد سكوتٍ آخر) — « اذا كانت ملاحقة الاوهام والاعتقادُ بها تستوجب عقوبة العمى فمن ذا منّا يا ترى ، من ذا مِن البشر يا ترى يستحقّ أن يكون بصيراً ؟ »

ليلة عيد النصر

ليلة عيد النصر

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : عاملُ الحزن وعاملُ السرور . على أنَّ قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه ...

صوتان اثنان يناديان المرءَ من سحيق أقطاب الحياة : صوتُ السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على أن صخور الوعر تهشّمُ قدميه ، وأشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوّه الثكل والوداع يفطّر لبّه ، وتجهدهُ المسؤولية في معترك الاعمال ، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاءَ حقيقة والسعادة خيال ...

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزنٍ في عمقها توازي في اتساعه بحر سرور ...

* * *

من لا يذكر ذلك النهار والليلة التي تبعتهُ ، يوم قامت دول الحلفاء تذيع بشائر النصر بدويِّ مدفعٍ طالما هدر لدى

الكريهة مجاهراً باستصغار الحياة واكبار المفاداة ؟ من لا يذكر مهرجاناً انتشرت بهجته على ضواحي العاصمة وتقاسم افراحه صاحب الكفّ الندي الذي أجزل للمعدم العطاء وصاحب اليد الفارغة التي أثقلتها أكياسُ الطعام والحلوى ؟

ايلة عيد النصر

إلاّ أنّ نور النهار باهتٌ لزخرف الاعياد ولا تتمّ الحفلات وتسطع الزينات إلاّ تحت رواق الظلام الغدافي

وانت، أيها الظلام، أمينٌ على مواعدك دقيق في الوفاء بها . ما شرعت الشمسُ مرةً في الافول إلاّ دنوت أنت متلمّساً متمهّلاً ، كأنك ذلك المحب المحبوب الذي ينفث في روع الفهِ الكلمة المنتظرة طويلاً قبل ان ينبس بها، ويقولها بأساليب شتّى قبل انتهاج الاسلوب الاوحد

واليوم، لدن حلولك، تتكيّفُ غيومُ المغرب متلوّنات وتترجرجُ خلالها الانجم الزاهرات، كأنّ هذه وتلك أوسمة العز وأشرطة الفخار على صدور الابطال

واقواس النصر هيفاء تحت بنود ألوية تعاقدنْ عليها، والانوار تتغامز متفاهمات عن بعدٍ كأرواح الاحباب.

ليلة عيد النصر

وأجواق الموسيقى تنبثق من جميع الشوارع والزوايا ، والجيوش تجوب الاحياء بطبولها دون أن يُعلم من اين تجيء وأنى تغدو

ولأسراب الطيارات عزيفٌ اذ تحلّقُ في السماءات العلى باعثات من جوانبها الى الارض بذيول الضياء ، مرصّعاتٍ هواءَ الشفقِ بيسمة نجوم البرايا لنجوم الباري

هوذا مائجٌ على الآفاق لألاء المواسم والاعياد . ومن احشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر . كلُّ شيء يلمعُ ويموج ويهتف ويتلظّى . وقد سرَت اليَّ عدوى الطرب فها انا أعتلي سطوح الحمى لأشرف على فرح الفارحين وأنال منه نصيبي

ولكن . . .

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزنٍ في عمقها توازي في اتساعه بحر سرور

* * *

اذ بينا الانسان يبتهجُ حاسباً ان انظمة الاجتماع قد انحلّت ونواميس الطبيعة توقفت حتى انقضاء سروره، اذا بالنواميس والانظمة نافذة في أدقّ مغازيها

. . . وفي وسط الهتاف المنسجم تعالت نغمة شاذة

وقفتُ عند الزاوية المشرفة على الديار المجاورة أبحث عن مصدر الاجيج وما لبثت ان عثرت عليه في فاجعة من فواجع البؤس العديدة، تلك التي تذوب حيالها افائف القلوب

هالك أربعة رجال على أحد السطوح المحاذية، يعالجون أمتعة أُخرجت من غرفة صغيرة ويزجرون امرأة بينهم تتوسل وتنتحب. مسكينة أحدودب ظهرها، وقبحت هيئتها، ونثر شتاء العمر على هامتها ثلج الشيخوخة. لقد مرّت شهور خمسة ولم تؤدِّ بدل الايجار فتسلّح المالك القوي بالقانون وحجز متاعها ليباع بالمزاد. وأمّا هي فتُطرد طرداً من الغرفة الصغيرة القائمة في طرف السطح، وتطرد من المنزل الى تحت قبة السماء

ايلي عيد النصر

ليلة عيد النصر

الجماهير السعيدة ترقب أفاعي النزر التي شرعت تتلوّى في الظلام ، ترقبها وتهتف والشيخة التعسة تجيل الطرف في حوائج تُنتزع منها ، تجيل الطرف وتبكي . وما كانت الدموع لتنقلب يوماً ذهباً وفضة يفيها المدين ويرضى بها الدائن !

هذه هي الطاولة التي تتناول عليها طعامها الغثّ الجافّ . وهذا هو المقعد الذي طالما جلست عليه تستطلع خبايا الليل البهيم . وهذه هي المرآة الـكالحة البلور التي تُرجع صورة وجهها الـكئيب وقامتها الممسوخة ودموعها الغزيرة

وجيع ، وجيع مشهد دموع اليأس في المرآة الصلبة الباردة !

كم كانت تحرص على هـذه الامتعة الحقيرة ! هي تلمسها الساعة ملاطفةً ، شاكية ، شاكرة ، آسفة . ألا انها لم تَعُدْ لها ، فمن أين هي آتيةٌ بمثلها الآن ؟

تعاون الرجال على اخراج اكبر متاع من الغرفة فهرولت الشيخة اليهم والزفير في صوتها يقطّع الشهيق :

ايلة هوذا السرير ! السرير الذي طالما انال أعضاءها الكليلة
عبير راحة بعد مشقّة النهار الطويل
النصر وُضع السرير بجوار الحوائج الإخرى ، ووقفت هي عنده واستولى عليها الهدؤ بغتة ، وطفق رأسها ينحني ببطء حتى استقر عند نحرها . وظلت كذلك كأنها في جمودها تمثال الحزن على ضريح ميّتٍ حبيب

الجماعات تضجُّ والمدافع تقصف ، والاضواء تجعل الليل نهاراً وهّاجاً . غير اني لم أعد أرى سوى نقاب القنوط المجلّل وجه الشيخة الذليلة . وكأني لمحتُ غائرات الكواكب يتشاورن في مؤاساة تلك المرأة الوحيدة ـ الوحيدة وسط ازدحام الجماهير

* * *

ايلة عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور على
عبير انّ قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرورٍ في اتساعه . . .
النصر صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته .

ليلة عيد النصر

على ان صخور الوعر تهشّم قدميـه ، وأشواك القتاد تدمي يديه، وتأوّه الثكل والوداع يفطر لبَّهُ، وتجهده المسؤولية في ميدان الاعمال ، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأنَّ الشقاء حقيقةٌ والسعادة خيال

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزن في عمقها توازي في اتساعه بحر سرور ...

* * *

ليلة عيد النصر

تدافعت الجماهيرُ في الشوارع المؤدّية الى حديقـة الازبكية لحضور المهرجان الاكبر، فهل من باحثٍ يهتدي إلى الشيخة وسط العباب البشري المتزاحم ؟

فقدكِ بصري ولكني لا أفتأ أتحزّن لكِ ، أيتهـا الطريدة . الى أين تذهبين ؟ أتقصدين الى جمعية خيرية وكلهن الليلة موصدات الابواب ؟ أم تطرقين باب كريم وكرام البشر لا يعبأون بغير لطيف الجمال أنيق الهندام ؟ أم تهجعين في مدخل منزل عظيم والناس كالشرطة يعتبرون من لا منزل لهُ لصاً متشرداً ؟ أم تبكين كما رأيتك باكية ،

وتمدّين يدكِ المرتعشة للتسوّل فيعرض عنك الفرحون لأنّ نائحاً يعكّر صفو الأنس مكروهٌ بحقّ ؟ أم تستنهضين همة صديق ولستِ بالشابة المليحة ليتحمس لكِ المتحمسون، ولا بالوجيهة القديرة ليتقرَّب اليك المتقربون ؟ أَم أنتِ وطّدتِ النفسَ على زيارة النيل السخيّ الذي يجود ولا ينتظر وفاءً فتجدين من امواجه صدراً ليّناً ، ومن امواهه عطفاً عذباً ، وتباركين موتاً احتضنكِ عندما نبذتك الحياة ؟

ايلدا عيد النصر

. . . .

اياً كانت وجهتك قفي قليلاً لاودّعك

نظري بعيد عنكِ وانما هو حائم حولك وتتبعك شفقتي الدامية ، تتبعك روحي المتفطّرة معك

روحي المتفطرة تعانقك ، أيتها المسكينة . أشاعرةٌ أنت بوجودي ؟ أنا الفتاة أستطيع أن اكون لكِ لحظة أمّا ، أيتها الشيخة الطريدة . أنتِ الآن ككل سقيم تحتاجين الى حنو الأم وما كان كلّ ذي أمّ نائلاً من الحياة حنوّاً ! سأهمس في مسمعك، كلماتٍ حلوة لا تعرف سرها سوى شفاهِ

ايلدا عيد النصر

المظلومين ، وسأمسح عبراتك بأنضر ورود البستان . ثم أهدي الوردة وما امتصته من لآلىء القلب الى آلهة العبرات والاشجان

لا تشكي الوحدة فاخوانك الاشقياء كثير . ولا تندبي حظك فانواع العذاب جمّة وصنوف الذلّ لا تحصى لستِ بالقبيحة ما كان لكِ جمال اليأس الرائع ، ولا انتِ بالعجوز ما ظلّ منهل البكاء فيك فتياً كما كان منذ فجر العالم

فيكِ يتجلّى الليلة الفرد الجوهريّ بينا الفردون يمثّلون الفرد المجازى . أنت الذات الجليلة المفجّعة وهم الذات الهزلية الطائشة . أنت الحقيقة الناضجة وهم الوهم الخالي . انت قطرة الحزن التي توازي بحر السرور ، لان وراء اللهو والجزل فراغاً وخلوّاً . ووراء الحسرة والقنوط نفسٌ زاخرة بالعواطف ، متسعّرةٌ بالحرق ، رويّةٌ بالدموع يتناظر في غورها جبّارا الحياة : الممكنْ والمستحيل

* * *

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة :

صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على أن صخور الوعر تهشّم قدميه ، واشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوّه الثكل والوداع يفطّر لبه ، وتجهده المسؤولية في معترك الاعمال فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأنَّ الشقاء حقيقة والسعادة خيال

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزنٍ في عمقها ترجح في اتساعه بحر سرور . . .

*

الطبيعة المعمرة المدمرة

الطبيعة بتلك الشجيرة الخضراء كنتُ أُزيّن ردهة الاستقبال

المعمرة كلّ يوم عيد وكل يومْ اجتماع

المدمرة وفي أحد الإمساءِ ، وقد خرج الزائرون ، سمعنا جلبة سقوطٍ وتكسر ؛ فسارعنا ، فاذا بالهرّة البيضاء واقفة في الظلام وقد ذُهِشَت لما نتج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديدة

وكان الاناء الخزفيُّ قد انقلب وتحطّم فتبعثرت أجزاؤه ؛ وانفصل عنق الشجيرة المايح عن جذعها وتجندل بعيداً كمن يعلم انه صائر الى لا شيء، بعد الذبول والجفاف، مع. وريقات أنيقة لصقت بهِ فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقيّة وصفراء

فجمدتُ جمود الآسف

ثم وضعتُ العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج

الطبيعة المعمرة المدمرة

الوريقات في آنيةٍ طافحةٍ بالماء ، لعلهُ يستبقي حسنهُ أياماً أخري أو ساعات . وأحكمتُ الجذع وما تشبث به من متراكم التراب في اناء خزفيّ جديد ، وجعلتُ له مكاناً توفّر فيه الهواء والنور والحرارة

وما انقضى اسبوع وجاءَ آخر الا وبدت طلائع الوجود في ذلك الجذع المجدوع ، وأسفرت عند جوانبه بسمات خضراء

فزدتُ تعلقاً به وحرصاً عليه ، أرقب فيه تفرُّع قدود الاغصان وتكوُّن صور الأوراق ؛ ولم يُعدْ ينتَظر سوى مرور الأيام لينمو ويتكامل

فوقفت أعجب به ذات صباح وهتفت قائلة :

— « بورك بك ، أيتها الطبيعة السخية الوهوبة ! ما أتلفت يدُ الضياع ودمَّرت الا رمَّمت يدُ العطاءِ منك وجدَّدت . ستردّ اليَّ بفضلك شجيرتي الحسناء ، أضعها في صدر الردهة فتبدو لي الردهة بها ايواناً صغيراً . بورك بك أيتها الطبيعة المليّة الشفيقة ، لان اشارتك الاخيرة هي

الطبيعة: دواماً اشارة البذل والبناء ! »

المعمرة في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرّة المولودة حديثاً تفتحُ
المرصرة عينيها المغمضتين للتعرُّف بما حواليها. وما لبثت ان لمحت الآنية
الخزفيّة أمامها : فمدَّت اليها يدها الصغيرة وقفزت الى حافتها
تشتمّ وريقات النبتة المتجدّدة

... ترى ، أتأتي البنت ما سبقتها الأمُّ الى فعله ؟

*

يوم الموتى

يوم الموتى

ريحٌ خريفيّة تعصف في الاشجار فتنزعُ عنها الاوراق وتسفي التراب فتذرُّه في الجوّ عجاجاً، وأشجان خريفية تشتدُّ في مكامن النفس فتثيرُ فيها تذكارات وتهيمنُ على تذكارات

اليوم تجرحني الأصوات والخطوات والنظرات وأرى كل حركة يأتيها الناس تمثيلاً. كأنما الحكمة المُثلى لديَّ في تكتُّم الصور المتوارية تحت صُدرة القبور، وفي هجوع الاشكال المتقلصة لحين ما من أحكام البعثِ والنشور

اليوم عيد الموتى وهذا شهر الموتى. هذا شهر الكآبة المزدوجة: كآبة الحسرة والدموع عند الشعوريّين وكآبة التأمل والتبحُّر عند الباحثين المتفكّرين. للأموات من البشر يعيّد المعيّدون. وأنا أُعيّد لمن عاش ومضى، وعلم ونسى، ولما ظهر واختفى، وأبرق وانطفأ أي لكيفيات

الحياة المعروفة والمجهولة جميعاً

يوم الموتى

اليوم عيد جميع الموتى

عيد العيون الجامدات ، والقلوب الساكنات ، والاوراق الذابلاتِ ، والآمال الذاويات ؛ عيد شريف الانكسارات وذليل الانتصارات ؛ عيد آلهةٍ تزلَّف لها العباد ونحروا على هياكلها الأفئدة قرابين ، ثم قاموا يدكُّون قوائمها ، ويحرقون معالمها ليدوسوا رمادها بأقدامهم الطاغيات ؛ وعيد مذاهب شيدت صروحها في مجاهل الغابات وعلى قمم الراسيات بما تجمّد من دماء القلوب وتصلَّب من لهب العواطف ، ثم انبرى مؤمنو البارحةِ يصيحون بين جدرانها صياح الهادم الأثيم . عيد كل ما قُدّس من رمزٍ ثم احتقر ، وكل ما فوخِرَ بهِ من رأيٍ ثم دُحِرَ . عيد مدنياتٍ دوّن العلمُ ارتفاعها واندثارها ، ومدنياتٍ غور ذكرها في غلس التاريخ وما زالت حيةً قاهرةً في استعداداتنا وميولنا . عيد عوالم خبت انوارُها في الاطار الفلكيّ ، وتطايرت غازاتها وتفتتت اجزاؤها متفرّقةً في المدى

يوم المولى

الشاسعات لينضمّ كلٌّ منها إلى ما يجذبها من عنصرٍ أو كوكب . وعيد شموسٍ طالما بعثت بالنور والحرارة إلى انظمة جليلة فصفرت واياها في الهاوية الرهيبة صفوراً ، وليس من يلتفتُ لغيابها . لانَّ عين العلم وان تسلّحت بالتلسكوب ضعيفة عاجزة ، ولأنَّ الاكوان لاهيةٌ بأنانيتها الحيوية ، مسوقة إلى تتميم دورتها المفروضة . فلا يستوقفها في سبيلها ما يلتهبُ من شمسٍ ، ويتحطمُ من عالمٍ ، ويحترق من سيّار

بل اليوم عيدكِ ، أيتها المجرَّة العظيمة ، بما تراكم وتلازب فيكِ من ملايين الكواكب المتتابعة التكوّن والتحوّل . وانتِ على هذه الضخامة لست غير جزء من الخليقة الشاملة حيث تتعاقبُ الاكوان الفخمة فتملأ الفضاء الذي لا يُحدّ ، وتتجدّد في كل اتجاهٍ على أبعاد لا يدركها قياس ، ثم تبلى وتختفي في ظلمات اللانهاية

* * *

يوم المولى

ولكن قبل ان يطير الفكرُ منّا إلى ابراج خاويات

يوم الموتى

وشموس متجلدات ، ما ذكرنا الموت إلا احتضنتكم قلوبنا أيها النازحون الراقدون . ما ذكرنا الموت إلا سمعناكم متكلمين ، وخلناكم باسمين ، وشعرنا بنبضات قلوبكم في راحات أيدينا . فنسألكم « أين انتم » فتجيب القبور « ها هم في حماي » . فتفرغ قلوبنا من عناقكم وراحاتنا من نبضات قلوبكم ، ولا يرنّ في مسامعنا غير تنهد الاسى ، ولا تبصر عيوننا غير سائل عبرات

* * *

يوم الموتى

سرتُ البارحة بين الاضرحة متمهّلةً استنشق جثمان الماضي الفسيح ، فتاقت أعضائي إلى الرقاد في ظلّ الغصون الحنونة . يالغرور الذين أقاموا هذه القبور المرمرية ناصبين حواليها التماثيل الفنيَّة ! عجّانُ المنايا يسوّي من كبريائنا الصعود والهبوط اذ يُلقي بنا في معمل التحوّل العام ، فتعودُ أيادينا الحقيرة إلى إعلاء الآكام وحفر الحفرات تمييزاً لذليل الأسماء ! وبدلاً من ان نبعث بذوينا إلى باريهم على ما يريد ترانا نوثقهم بكثائف التظاهر والدعوى ، ونثقل كواهلهم

يوم الموتى

بالجدران والتماثيل، خوفاً من ان نكون بسطاء متواضعين ولو في أحزاننا فحسب! ولكنّ أصوات الموتى تتشابهُ وراء القبور البسيطةِ الجليلة والقبور المزخرفةِ الحقيرة : هـذا ضريح شهمٍ عظيمٍ سألتهُ حكاية نزيلهِ فقال : لقد عاش وأحبَّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى

وهذا مضجعُ فقير ينزوي وراءَ المضاجعُ سألتهُ عن ضَيفه فأجاب : لقد عاش وأحبّ وتعذّب وجاهد ثم ـ قضى

وهذا قبر فتاةٍ لم يرَ الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصّات ، وهو كذلك يقولُ : لقد عاشت وأحبّت وتعذّبت وجاهدت ثم ـ قضت

وهذا قبر امرأةٍ صالحةٍ اسعدت زوجها وابناءها جميعاً، وصوتهُ يقول : لقد عاشت وأحبّت وتعذّبت وجاهدت ثم — قضت

وهذا قبر من كان عالةً على نفسهِ وعلى ذويهِ ، وعلى كل محيطهِ حتى من لقيه صدفةً في طريقهِ ، وصوته يقولُ : لقد عاش وأحبّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى

يوم الموتى

وهذا قبر طفل رضيع لم يُحسب عمرهُ بغير الايام ، وهو يقول : لقد عاش وأحبّ وتعذب وجاهد ثم — قضى

هذه هي حكاية الموتى وهذه هي حكايتنا نحن اللاحقين بهم ،

هذه حكاية الموتى على الاطلاق ، حكاية الظالم منهم والمظلوم ، والكبير والصغير ، والذكي والمعتوه ، والاحمق والحكيم ، صاحب القبر المرمري الذي لا تبلغ الهامات عتبتهُ وصاحب المضجع الترابي الذي تدوس هامتهُ الاقدام . كلٌّ منهم عاش مرغماً ، وأحبَّ مرغماً ، وتعذّب وجاهد بامكانه الفطريّ والاكتسابي ثم ـ دعاهُ الردى فلبَّى صاغراً

* * *

يوم الموتى

واذا تحوّلنا عن هذه المقبرة ذات الحدود الى مقبرة الخليقة التي لا حدود لها سمعنا من الزهرةِ والشجرة والحيوان والانسان والشعب والجنس والمدنيّة ، ومن كل سيارٍ ، ومن كل شمسٍ ، ومن كل نظامٍ شمسي ، هذه اللازمة التي تأبى التغيّر : لقد عاش بقوّةِ الحياة التي كوّنته

يوم الموت،

وشكّلته وأدمجته في فصائلها. ولقد أحبّ بقوة الجاذبية الشفيقة العنيفة التي تضمد جراح القلوب لتمزقها، وتواسي أوجاع الارواح لتضنيها، وتجلو للعقول اسراراً لتثقلها بغوامض الاسرار. ولقد تعذّب لأن العمر ارتفاع وانحدار ونمو وتناقص، وبين هذه المناقضات المحتّمة يتفطّر الفردُ في احتياجه الى التوازن والثبات. ولقد جاهد لأنّ الجهاد وسيلة يزعمها موصلة إلى الثبات والتوازن. وهي لا توصل إلى غير نفسها، لو علم العالمون! لقد جاهد ضد العناصر وضدّ الفصول، ضد الاجناس وضد الجماعات، ضد الاصطلاحات المتحجرة والمجازفات المتهوّرة. ضد الغنى والفقر معاً، ضد الجمال والقباحة وضد البله والذكاء. جاهد ضد الغرباء، وضد الاعداء، وضدّ الاصدقاء. وجاهد ضد أحبّ الاحباب. وكان أوجع جهوده ضدّ ذاته ـ تلك الجهود التي تكسّر لولب القدرة وتبدّده بينما الجهود ضدّ العالم الخارجي تعزّزه وتقوّيه. ثم عندما تحلّبت منه القوى بالحياة والحبّ والعذاب والجهاد قضى ـ أي التحف باللغز

يوم الموتى

الأعظم، وأسدل على حقيقته الظاهرة حجاب الخفاء، وغاص في مغذّية الكائنات ليتقمّص في النار شرارةً، وفي الهواء نسمةً، وفي الماء قطرة، وفي التراب ذرّة. وما هي الذرّة؟ أهي مادة أم هي قوّة؟ أهي فاعلة أم هي منفعلة؟ أهي بصيرة أم هي كفيفة؟ ولماذا تتجمهر وشيلاتها لتشكل الصوّر ثم تحلها، ثم تشكلها ثم تحلها؟ أفي المادة كلّ وعود الحياة وكل قواها؛ أم في الحياة كل وعود المادة وكلّ قواها؟ ولماذا تتعاون الحياة والمادة حتى تصيرا في دماغنا إدراكا، وفي جناننا عاطفة، وفي اعضائنا حركة، وفي ألحاظنا نوراً، وفي محاجرنا دموعاً؟ ماذا تريد منّا الحياة وماذا تبتغي المادة منا؟ ومتى تنتهي هذه الالعوبة السحرية التي تبتدىء بالاهتزاز، وتستطرد بالاهتزاز، ولا اهتزاز ينهيها؟

* * *

يوم الموتى

والآن اذ اسمع الرياح تعتولُ وتندبُ، والاجراس تطنّ طنين الغمّ والكرب، والارغون يعزف ألحان التفجّع والانتحاب، ثم تتراءى لي أودية وجبال زُرعت فيها العظام منا

وامتدّت الاعصاب ، وتنبسط لمخيلتي سهولٌ ومروج تغذّت من اجسامنا وارتوت بدمائنا ، وتضجّ حولي أصوات الباكين الحزانى ، وتتزاحم امام ناظري جميع مشاهد الفراق – فراق مرّ يحتمهُ الموت وفراق أمرّ تقضي به الحياة . فأذوب واتضاءل ثم اذوبُ حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرةً واحدة متوجعة متلهفة متفجعة تتوق الى التلاشي والنسيان – اذ ذاك تنقشع عن عاقلتي حجبُ الجهل والانانية ، وتلقي بي يدُ الروح الاعظم في فضاء اللانهاية ، ويحملني جناحان قويان الى حيث أجدُ الموت حدثاً عرضياً والفناء خيالاً زائلاً . اذ ذاك ينمو كياني ويتعالى ويعظم فيتنشقُ هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان

نوم المولى

من أعماق اللجج الى أعالي الجبال ، من نواة السلب المبعثرة في المادة الخرساء الى نواة الايجاب الكامنة في بوارق الكهرباء ، من ذرة الرمل ، إلى الشجرة المزهرة ، الى الهواء الملامس أفنانها ، الى طير سابحات تحت الغمام ، الى فتيت شموس تلبّد في حضن المجرة ، الى أبعادٍ لا يُدركها غير الخيال

بوم المولى

العظيم ، الى ما وراء ذلك من إطار الخليقة السابي ، الى كل نقطةٍ من كل مسافةٍ في كل مكانٍ من كل زمان في كل أبدية تتموّجُ حركةُ الحياة النضناض متتابعة متقطعة ، متفردة متنوّعة ، متظاهرة متوارية ، متلاطفة متخاشنة ، متمهلةً متضاعفةً ، متشدّدة متعادلةً ، أبدية أزلية سرمدية .
صوتها العجيب يتراجعُ من حنجرةٍ الى حنجرةٍ ، ومن أفق الى افقٍ ، ومن عالمٍ الى عالم ، ومن مسكوتٍ الى سكوتٍ ، مولولاً مع الاعصار ، هامساً مع النسمات ، نادباً مع البحار ، مدمدماً مع العناصر ، متمتماً مع ثلاثمائة الفٍ من أجناس الحشرات ، صامتاً مع جميع المكروبات والذرّات ، آجاً مع المجهولات ، ملعلعاً مع الآلات ، حافّاً في حفيف الافلاك ، داوياً بجميع انغامه ونبراته في ملايين الملايين من اصوات الخلائق

تكسونا الحياة كرداءٍ سحري لا تبلى خيوطهُ وتحضننا السماء فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت والجحيم والفردوس في نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحياة في الانحدار

يوم الموتى

وفي الانتصار ، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء أشئنا أم لم نشاء

ما الارض والبحار، وأبعادُ الافلاك سوى مدافن دهرية انما هي في الوقت نفسه معاملُ توليدٍ وتكوين . نحن نخلّد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها . ونحن أبداً كذلك حتى تثلج الشموسُ وتضمحلُّ قوى العناصر وتتفكّك عرى الاكوان سابحة في الفناء الأنور، في البقاء الأوحد ، في حضن الله

اذاً أعيدُ الموتى اليوم أم عيد الاحياء ؟

انما اليوم، ككل يوم ، عيد الناموس الفرد الذي يعجن أشكالاً تبدعها الطبيعة العاماء . يجبلها باليد الواحدة التي تدعى القوة ويقذف بها الى اليد الاخرى التي تدعى التكييف قطعاً ذات صور معيّنة . ولا يفتأ يستخرج الجديد من القديم ويدغمُ القديم في الجديد ، ليتمّ للاحقاب تعاقبها بالبشر والافلاك والزمان في مجاهل اللانهاية الخالدة

الكتاب الثالث

في مرقص الحياة

... ودرجت في التيار المكتسح الملايين فبلغت جوانب الميدان الفسيح الذي تلجه الأفواج من جميع المناهج ، حتى اذا أنعتها الايام والاختبار تغلغلت فيه شيئاً فشيئاً . في ذلك الميدان تقيم الحياة مرقصها ليس في قصر واحد كما ظننت قبلاً ، بل في مئات الالوف من القصور والمنازل والأكواخ وما بينها من الصحارى والواحات والجبال والوهاد والبحار. وما كنت اخاله ألحاظ نور تنادبني وجهته ، زيجاً من مشاعل الانتصار ، وأضواء الأفراح ، ولمعان الاسلحة ، وشموع الجنازات ، ووقود التدفئة ، ومسارج النذور ونباريس الاجتهاد والعناء. والنشيد الذي حسبته أهزوجة طرب وحبور كان خليطاً هائلاً من صراخ الصرعى وعويل الهلكى واستغاثة الغرقى ، وأنين المحرومين واسترحام المتوجعين ، وتهليل الفرحين والسعداء والمستفاحين ، وابتهال الاتقياء والزهاد والمصابين ، وزفير الحفظة والشماتة ، وصعق التحريض والتهديد والاستنزال ، وحمد القناعة والشكر والرضوان ـ وألوف الوف الاصوات المؤلفة نشيد الحياة الرائع المستديم

والقدرة الخفية التي أوقفتني في السكوة ثم دفعت بي الى السير وأوصلتني الى هـذا الميدان ، هي التي سوتني والذين جعلتهم حولي يصفقون ويلطمون . فتذمرت مع الضعفاء وانتصرت مع الاقوياء ، وتواكلت كالطفيليين وتنشطت كالنبلاء فعرفت كيف يعز الناس وكيف يذلون ، كيف يجوعون ويشبعون ، كيف يؤلمون ويتألمون ، كيف يستبدون ويظلمون . عرفت عبودية المساكين وحسدهم ولجاجتهم واستقلال الاغنياء وانافتهم وجفافهم . عرفت ان لكل امرىء غماً وان هش وبش ، وان لكل عاتق حملا وان تقوم وانتصب ، وان لكل من أسرى الحياة اطماعا

ومطالب وشكايات : فواحد يبتغي الفوز بالحذق والجهود ، وواحد يكد ولا ينال شيئاً ، وواحد لا يتعب ولكنه ينال كل شيء ، وواحد يصيح بأنه ذو حق ونصيب وليس له الكفاءة والاجتهاد اللازم للظفر بذلك الحق والتمتع بهذا النصيب . وبينا جلبة الاصوات تتعالى من كل صوب يطغي المد جارفاً الجماهير والانظمة والجهود والمطامع فيحتضنها من الحياة العباب الرجاف كما يحتضن الخضم الزاخر ملايين القطرات التي لا تعد ولا تحصى - وتظل الحياة محيية مرقصها حيث تتابع الاشباح والصور واللغو والحركات والانوار والظلمات ...

وها انا ذي أسير في أطراف مرقص الحياة معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعاً ، يبرح بي واياهم الشوق الى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها . وعند كل خطوة خيبة وكمد ، وعند كل خطوة أمل وجذل ، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوي الذي يتدفق مرغياً مزبداً الى حيث لا يدري . وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها ، عن معنى الألم وغايته ، عن معنى الطرب وغايته . وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الانسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً وجيعاً ...

*

كن سعيداً

كن سعيداً

في هيكل الاشجان الانسانية وقف الزعيم الاكبر يخطب في القوم فسمعتهُ يقول :

« اذا كنت غنياً كن سعيداً ! لأن مزاولة الامور الخطيرة هُيِّئَت لك وكنت مشكور الصالحات مرجوّ الجميل . لقد عزَّ جانبك ، ومُنعت حوزتك ، ونُشر رواق العز فوق ذمارك فتمّ لك وجهٌ من وجوه الحرية والاستقلال . وان كنت فقيراً كن سعيداً ! لأنك سلمت من شلل معنويّ ابتُلي به من دانت لرغبتهِ جميع المطالب ووقيت ما عُرّض لهُ السريُّ من حسدٍ وكرهٍ ، فلا تتلظى الصدور لنعمتك ولا يُنظَر الى متاعك بعينٍ مريضة

« اذا كنت محسناً كن سعيداً ! لأنك ملأت الايدي الفارغة ، وسترت الاجساد العارية ، وكوّنت

كن سعيداً
من لا كيان لهُ فرضيتَ عن نفسك ووددتَ إسعاد عشرات ومئات لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدُّد المنتفعين بأسبابها. وان عجزتَ عن الاحسان كن سعيداً! فقد اجلّت ساعة تشهد فيها نكران الجميل ممّن صانعتَ فاتخذ المعروف سلاحاً يهددك به حاسباً التجنّي شجاعة والسفاهة حذقاً. تلك الساعة لا بد من مرورها فتتوتّر لها اعصابك، ويفور سخطك، وتقسو عواطفك، ويجفُّ منهل كرمك، وتحتقر الانسان وتيأس من اصلاحه - قبل أن تصل الى قمة الغفران السامي والتغاضي الحكيم

« اذا كنت شاباً كن سعيداً! لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون، وقد بعُد أمامك مرمى الآمال فتيسر لك اخراج الاحلام الى حيز الواقع إذا كنتَ بذلك حقيقاً. واذا كنت شيخاً كن سعيداً! لأنك عركت الدهر وناسه وأُلقيتْ اليك من صدق الفراسة وحسن المعالجة مقاليد الامور: فكلّ أعمالك ان شئت منافع،

كن سعيداً

والدقيقة الواحدة توازي من عمرك أعواماً لأنها حافلة بالخبرة والتبصُّر واصالة الرأي ـ كأنها ثمرة الخريف موفورة النضج ، غزيرة العصير أُشبِعت بمادة الاكتمال والدسم والرغيبة

« اذا كنت رجلاً كن سعيداً ! لأن في شهامة الرجولة يتجسَّم معنى الحياة الاكبر . واذا كنت امرأة كن سعيداً ! فالمرأة منشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته ، وبسمتها مكافأة اتعابه

« اذا كنت رفيع الحسب كن سعيداً ! فقد فزت بثقة الجماعة دون ان يوصي بك أحد . وان كنت وضيع النسب كن سعيداً ! لأنه خيرٌ لك أن تكون مؤسس عيلتك ورافع عمادها الذي تُعرف به وتفاخر بذكراه ، من أن تكون أحد أبنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم باعلائه

« اذا كنت كثير الاصدقاء كن سعيداً ! لأن

كن سعيداً

ذاتك ترتسم في ذات كل منهم . والنجاح مع الصداقة أبهر ظهوراً والفشل أقل مرارة . وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد في غير النفوس ذات الوزن الكبير ، أهمّها الخروج من حصن انانيتك لاستكشاف ما عند الآخرين من نبلٍ ولطف وذكاء .
واذا كنت كثير الاعداء كن سعيداً ! لأن الأعداء سلّم الارتقاء وهم أضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت منهم المقاومة والتحامل ، وتنوَّع الاغتياب والنميمة زدتَ شعوراً بأهميتك ، فاتعظت بالصائب من النقد الذي هو كالسم يريدونه فتّاكاً ولكنك تأخذه بكمّيات قليلة فيكون لك أعظم المقويات . وتُعرِض عما بقي ، وكان مصدره الكيد والعجز ، إعراضاً رشيقاً . وهل يهتم النسر المحلّق في قصيّ الآفاق بما تتآمر لهُ خنافسُ الغبراء ؟

« اذا كنت صحيحاً كن سعيداً ؟ فقد استبان فيك توازن الناموس الكلي وانسجامه وأُهلت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات . وان كنت عليلاً كن سعيداً !

كن سعيد

لانك مسرحٌ تتقاتل فيه قوّتا الكون العظيمتان فالغلبة لما تختار منهما والشفاء موقوف على ما تريد

« اذا كنت عبقرياً كن سعيداً ! فقد تجلّى فيك شعاع ألمعيّ من المقام الأسنى ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على جبهتك فكراً ، وفي عينيك طلسماً ، وفي صوتك سحراً . والالفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذع وتضيء ، وتحرق وتهنىء ، وتخجل وتكبر ، وتذلّ وتنشط ، وتوجع وتلطّف ، وتسخط وتدهش ، وتقول المعنى « كن ! » فيكون . وان كنت خاملاً كن سعيداً ! لأنّ الالسنة لا ترهف حدّها لتذكرك والانظار لا يستعرُ فيها لهيب التفحّص وحبّ المنافسة اذ تتّجهُ اليك . هالك القمة فاقتحمها ان كنت كفوءاً . والا فاقنع بأنك جزء مهمّ من اجزاء الكون تستعملك الكفاءةُ وقوداً . فالايوانات الباذخة لا تقوم بغير الحجارة الصغيرة ، وانت متمتّعٌ براحة لا ينعم بها من لا ترتوي

كن شفتاه بغير ماء الحياة ولا تغتسل روحه بغير سيول الالهام

سعيداً « اذا كان صاحبك وفياً كنْ سعيداً ! لان الايام حبتكَ بكنزٍ من اثمن كنوزها . وان كان خائناً كن سعيداً! لانه لم يكن على استعداد لاستماع امثولة خفية تلقيها عليه نفسك . ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة إلاّ ليفسح مكاناً لمن هو خيرٌ منه وأجدر

« اذا كنت حرًّا كن سعيدًا ! ففي الحرية تتمرن القوى وتتشدّد الملكات وتتسع الممكنات . وان كنت مستعبَدًا كن سعيداً ! لان العبودية افضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية وتقف على ما يصيرك لها أهلاً

« اذا عشت في وسطٍ يفهمك ويقدرك كن سعيداً! فهناك اكتسبتَ كل يوم شباباً جديدًا وقوة جديدة ، ونمت روحك ثم نمت حتى أذهلتك منها الآفاق والبحار . وان عشت في وسط متقهقر منحطّ ، أيها التعس ! كن سعيدًا . لانك في حلٍ من ان تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه ، الى حيث تبدع من أشباح روحك عالماً حوى

قوتاً لجوع فكرك وشراباً لظمإ جنانك

كن سعيداً

« اذا كنت محباً محبوباً كن سعيداً ! فقد دلّتكَ الحياة وضمّتك الى أبنائها المختارين ، وأرتك الالوهية عطفها في تبادل القلوب . واجتمع النصفان التائهان في المجاهل المدلهمّة فتجلّت لهما بدائع الفجر وهنأتهما الشموس بما لم تهتد بعد اليه في دورتها بين الافلاك ، وأفضى اليهما الاثير بمكنون أسراره . لذلك هما يتأملان حيث يتصابى الخالي ، ويصمتان حيث يتكلم ، ويمزحان حيث يجدّ ، ويتفرسان في خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالاً .
وان كنتَ محباً غير محبوب كن سعيداً ! لان النابذ يحبُّ المنبوذ في أعلى طبقات كيانه ـ حباً لا يدانيه افتتانه بمن يهوى . والهجران حالة جمة المعاني والالغاز ترقق ما ضخم من الرغبات وتصفي ما عكر من الانفعالات حتى يغدو الفؤاد شفافاً نورانياً متلألئاً كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود . ولسوف تفوز بمن تريد ان لم يكن في تلك الصورة الانسية المتباعدة

كن سعيداً — ففي سواها. تهيّأ للحبّ مهما اثقلتك المشاعر لأنّ للحبّ هبّات وسكنات، وأنت لا تعرف ساعة مروره. كن عظيماً ليختارك الحبُّ العظيم، والاّ فنصيبك حب يسفُّ التراب ويتمرّغ في الاوحال، فتظلّ على ما أنت او تهبط به، بدلاً من ان تسمو الى أبراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر. لأنّ هياكل مطالبنا انما تُقام على خرائط وهميَّة وضعتها منا الاشواق

« كن سعيداً لان أبواب السعادة شتى، ومنافذ الحظّ لا تحصى، ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق. كن سعيداً دواماً، كن سعيداً على كل حال! »

* * *

كن سعيداً — انفضّ القوم فاذا بالجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتنتحب وتبكي، ومضى غيرها في سبيله ضاحكاً هازئاً. فنظرت الى شبح انتصب قربي نظرة استفهام فقال « أنا روح الخطاب جئت أرى تأثيري في الناس »

قلت « اذن انت تعلم ما هذا الذي يبكي الناس عنده »

كم سعيداً

قال « هذا جدار الدموع »

قلت « وهل هؤلاء يهود وهل نحن في اورشليم ؟ »

فقال « للانسانية كما لليهود « جدار دموع » تبكي عليه وتتحسر »

قلت « ولماذا يبكي هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموجبة الرجاء ، خطبة السعادة الجميلة ؟ »

قال « منهم مَن يبكي لأنه لم يسمعها من قبل . ومنهم لانه سمعها قبل الآن ولم يستفد . وآخر لانه استفاد أياماً ثم تغلّب عليه المحيطُ وجرّتهُ الوراثة باثقالها الباهظة الى هوة القنوط . وغيره يبكي بكاءً عصبياً لان الباكين يحيطون به ، ولو ضحكوا ورقصوا لكان أوّل المقلدين . وغيره ليظهر انه ذو نفس حساسة تستوعب كل تأثير صالح . ويبكي غيره لانه يرى في الجدار المحطم صورةَ لآماله

الذاوية وهو من الذين يندبون حيال متراكم الاخربة ، ومندثر الديار ، ومتعفي الآثار».

قلت « وأولئك ضاحكون ؟ »

قال « هم ذوو الاذهان المحددة التي لا تعترف بما لا تفهم وتهزأ بكلّ ما لا تعرف . انهم أحقّ بالاشفاق من الباكين »

قلت « وهناك خيالان لا يبكيان ولا يضحكان . رجل وامرأة يسيران جنباً الى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحني الجبهة وفي عيونهما تتالى دوائر الافكار ، أتدري من هما ؟ »

فرنا اليهما الشبح وقال « هما الارض المخصبة . هما الشعلة المقدسة . هما اللذان فهما واستفادا »

فقلت مكتئبة « أسفاً على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة فلا يستفيد به سوى اثنين ! »

فتألّق وجه الشبح بنورٍ سماوي وقال « بل ما أنفعهُ

خطاباً هو في هــذين الروحين غلّة الدهور، وفي هذين الفكرين مجدّد للقديم ،.وفي هذه الايدي مشعالٌ يتطاير منه الشرر فتتقد به شموس الافلاك وشموس الاذهان بورك به خطاباً بورك به ! »

وغادرني الشبح وسار الى ذينك الخيالين فنشر من كتفيه جناحين خفيين وحلّق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما

*

السهرات الراقصات

السهرات الراقصات

دنا موسم السهرات الراقصات فيمّمها أهلُ المدينة أفواجاً ، وسرتُ في جملة السائرين بثوبي القرمزيّ المردَّن والقلب يحدوني بشدو الشباب والطرب . وما خطوتُ في القاعةِ الساطعة خطوةً حتى ترنَّحتُ لتوقيع العازفات والعازفين . واستحثني تمايل الراقصات والراقصين فأغفلتُ ذكر اللواعج والتباريح ، ونسيتُ انه بينا في رحبات الجذل يتمتع السعداء ويلهون اذا في كهوف القَدرِ تتفطرُ حشاشات وتدمع عيون

رقصتُ مع كل راقصٍ ذي كياسة ، واحتسيتُ الكوثر من كؤوس عسجدية ، وبسمتْ شفتاي لكل شفة باسمة ، ولمعتْ عيناي لكل عين لامعة . ولما طاف طائفُ الكرى بين أجفاني عدتُ مستوفية السرور الى مضجعي ونمتُ نومةً طويلة عميقة

السهرات
الراقصات

واستيقظت في الغد فأذهلني ان أشعر بترضرضٍ في روحي ، وبطعم الفناء لحي في فمي ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها أحمال الدماء

* * *

السهرات
الراقصات

وفي السهرة الثانية حيّاني أظرف رجل بين الرجال وقال « هل لكِ في دورة تتوافق وأنين الاوتار ؟ »

قلت « بل عفوتُ اليوم عن نفسي وعن أبناء الانس أجمعين . فلا هم يتعبون بمراقصتي ولا أنا أُتحَف بتعليقهم عليها »

قال « اذاً نجلس في خلوة المقصف حيث الشراب والحلوى والمجاملة »

قلت « لا . بل على تلك الشرفة الصغيرة حيث النور رقيقٌ يمازج الظلام ولا يزيله . اتصل بي انك محدّثٌ ألمعيٌّ فكلّ سهرتي هذه اصغاء »

ففتل شاربيه بأناقة ، ورنا الى طرفيهما باعجاب ، ثم انحنى شاكراً لأنهُ متواضع . ثم سار بي الي الشرفة وقال

السهرات « تفضلي اذاً واستريحي على هـذا المقعد ذي العلاقة
الراقصات بصاحبة الملايين »

قلت « ومن هذه ؟ هات بطرف من حكايتها ! »

ففعل بظرفٍ وأضحكني شـديداً . ثم قدّم الي
زهرة أهدى مثلها ذلك النبيل الى تلك العظيمة ، وسرد
حكايتهما . ثم تلا عليّ رسالة جاءتهُ من تلك الجميلة وأخرى
وردت اليه من ذلك الوزير ، وسرد حكايتهما

ثم حدَّثني عن آخرين وأخريات . وكان الراقصون
يتتابعون أزواجاً متخاصرة وذاكرة نديمي سجلٌ حفظت
صفحاتهُ الامينة تواريخ الافراد والجماعات صعوداً الى
آباءِ الآباء بما نزينها من فضل ـ وما أقلّه ! ـ وما يشوبها
من نقصٍ ـ وما أوفره ! وتطرّق الى الإلماع عن تأثيره
الحالي في تقسيم الممالك واتفاق الدول وعقد المؤتمرات
وسَنّ القوانين . تلك شؤون لم يكن ليعرفها أحـد وانما
هو كان يُسرُّها اليّ لأنه ينظر اليّ بعين الاكبار
والاعجاب ، وكل ما يتبع هذين أو يسبقهما من الاعتبارات .

فكنت أُصغي متفكهةً ضاحكةً اذ أجد في ما يقول السهرات ظرفاً لا يبارى ، وتوقداً لا يخمد ، وفطنة لا يلحقها الراقصات كلل أو نضوب . إلا اني كنت أهمس لنفسي « ليته يسرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون ! »

وأتينا على آخر السهرة فقلتُ باخلاص « ما كان أقصر هذه الساعة ! »

ففتل شاربيه باناقة ، ورنا الى طرفيها باعجاب ، ثم انحنى شاكراً لانه متواضع . ثم قال مشيراً الى رجل بطيء الخطى ، مهيب المنظر ، مرَّ على مقربة منا ـ قال « لا أدري ما اذا كانت قصيرة في نظر هذا »

فسألت « ومن هو هذا ؟ »

أجاب محدثي « هذا أحد اثنين . فاما يظل صامتاً فلا يدرك المرء لسكوته معنًى ولو عاشره مليون سنة ؛ واما يتكلم ... فينطبق عليه قولٌ يزعم أحد الظرفاء ان الله قاله عن الرئيس ابن سينا »

قلت « ألا أخبرني بما يزعم ذلك الظريف انه

السهرات تعالى قاله عن ابن سينا ! »

الراقصات فحدثني نديمي قائلاً « يزعم صاحبي المليح النكتة انه لما مضى ابن سينا الى ربه جاءه الملكان وسألاه « ما هو الله ؟ »

« فاجاب لفوره « هو أسطقسٌ فوق الاسطقسات »

« فتبادل الملكان نظرة فلم يفهما . فذهبا الى الحق سبحانه وقالا « ربنا ! لقد جاء الساعة عبد من عبيدك البشر ، رجلٌ يتكلم كالمتكلمين ولكننا لا نفقهُ لقوله معنًى »

« فسأل الحق جلّ وعلا « وماذا يقول هذا الرجل ؟ »

« فاجاب الملكان » ربنا ! سألناه « ما هو الله ؟ » فقال « هو اسطقسٌّ فوق الاسطقسّات »

« فاطرق المولى سبحانه .وقد ألبس عليه مغزى الكلام ، وقال « ان أمر هذا الرجل لغريب ! وما اسمه ، أيها الملكان ؟ »

« فقال الملـكان « ربنا ! اسمه عبـدك الرئيس ابن سينا » السهرات الراقصات

« فضحك ذو الجلال وقال « ها ها ها ! لقـد عرفته ! فدعاه وشأنه . هذا رجل قضى عمره متكلّـماً فلم تفهم خلائق الارضين كلمةً من أقواله »

« ذاك ، على زعم صاحبي ، ما قاله الله تعالى عن الرئيس ابن سينا »

فضحكت ثم ضحكت ؛ وودعت محدثي قائلة « حقاً انك رجل ظريف ! » وهمست لنفسي مرة أخرى « ليته سرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون ! »

* * *

واستيقظت في الغد فأذهلني أن أشعر بترضرض في روحي ، وبطعم الفناء في فيّ ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها احمال الدماء السهرات الراقصات

وبكى فيّ قلبي لما شهدتهُ من الدعوى

السهرات الفارغة ، واللغو المزعج ، والتمثيل الكاذب ، والعاطفة الراقصات السقيمة . ثم قلت مصممة « إذن فالليلة لا رقص ولا حديث »

وجنّ الليل فقصدت الى السهرة الحافلة . تجنّبت قاعة الراقصات والراقصين ، وهربت من أظرف رجل بين الرجال ، وانتحيتُ مكاناً فيه ينفردُ الرجل السكوت

بادرته بالتحية فلم يردّ التحية ، والقيت عليه الاسئلة فلم يحرْ جواباً وانما نظر اليّ نظرة رأيت وراءها محافل الاجيال ومواكب الدهور . فجلست في ظلّ سكوتهِ ، ولم يكن سكوتهُ سوى سكوت الفضاء المملوء بحفيف الافلاك . وانبسطتْ دوائر فكره وترامت قليلاً قليلاً فاحتوت هالة كياني، واجتذبتني منهُ القوة السرية الى سويداء قلب الوجود حيث الليل الأليل يفضي الى برج الأضواء

وانتهت السهرة قبل أن تبتدىء . ولمّا عدتُ الى مضجعي لم أرقد إلاّ لأواصل السير في عالم السكوت

السهرات
الراقصات

واستيقظتُ في الصباح فحرّكت روحي جناحيها وقد لوّنتهما أشعةُ قوس الغمام ، وارتفعت جبهتي تحت تاج معنويّ قد ركز عليها ، ونموتُ وكبرت فجأة لأنّ مختلف الرغبات في المعرفة والاطلاع انبثقت فيّ

وها قدْ انقضت ملايين أعوام فيها تعلّمتُ جميع لغات الانس والجن ، ووعيت جميع علومهم ، واستظهرت جميع مصنفاتهم ، وتتلمذت لجميع أساتذتهم ، وجادلت جميع فلاسفتهم ، ومحّصت جميع أقوالهم ، وسبرت هول اغوارهم ، وتسلقت جميع قممهم ، ولمستْ قدماي الداميتان عتبات الغيوب دون ان أظفر بادراك أبسط معنى يجولُ في خاطر الرجل السكوت

*

الموضوع التائه

الموضوع التائه

جاء من « النادي الأسنى » وفدٌ كبيرٌ يدعوني الى القاء خطبة في الحفلة السنوية . تخاطبت الوفد قائلة :

« أيها السادة العلماء والاعيان والفضلاء

« انتم تمثلون في اشخاصكم المحترمة جميع مراتب
« المدعوّين . ولما كنتُ طامعةً في رضاكم ورضى
« الجمهور لئلا يضيع الوقت سدى ونكون عرضة للانتقاد ،
« فأنا اطلبُ اليكم ان تتفق كلمتكم على موضوع
« أُخاطب الناس به . فأقبل دعوتكم بارتياح »

فقال احد الاعضاء « حبذا الاقتراح الحصيف ! أما ونحن عند حركةٍ نسائية نبتغي ان تتناول نساءنا وبناتنا ، فأحرِ بك ان تتكلمي في ترقية المرأة عن طريق العلم والتهذيب لأنها ، وهي دعامة العائلة ، انما عليها تقوم عظمة

الأمة وسلامة العمران »

فقال آخر « عفوكَ سيدي ، كلّ موضوعٍ غير الموضوع هذا حسن . أما اذا ذاكرتنا بهذا الشأن فقد ينسحب النائمُ المدعوّون واحداً بعد الآخر ، كما سبق اني فعلتُ وبعض أصحابي يوم قامت سيدة تلوكُ أمامنا ما سئمنا سماعهُ ، حتى صرنا نحسب مردّدهُ اسطوانة فارغة تحوك الألفاظ ولا تعي . فلتحدّثنا اذاً خطيبة الغد عن الحركة العمرانية الكبرى وروح العصر العامّة فذلك أنسب وانفع »

فقال ثالث « أنزعج ابنتنا بتهيئة ما قد نلمّ بهِ من مطالعة الصحف السيارة وأنباء البرق والبريد ؟ نريد أن ننشّط النساء ونبثُّ فيهنّ حبَّ الرقيّ والعرفان ، كما نريد تحويل الرجال عن المقاهي وموائد المقامرة وحانات الرقص . فلتتكلم إذن في موضوع عاميّ فلسفيّ يشحذ القرائح ويغذّي النفوس »

فقال آخر « سينعقد الاجتماع بعد طعام العشاء أي

الموضوع ساعة لا يكون هناك متسع « للتغذية » ويكون « الشحذ » في غير أوانه . وما نفع كلام لا يفهمه سوى النفر القليل فتزهق أرواح الآخرين فيحسبون الخطيبة متقعرة ويمقتون في جهلهم وتخلفهم العلم للنساء ؟ ألا فلتلق علينا بحثاً في ما مارسته اخواتها دواماً ، حتى في العصور المظلمة ، كالموسيقى والرقص والغناء فيجيء كلامها سائغاً ملطفاً بعد عمل النهار الشاق ، ولا تغلق معانيه على أحد »

فاعترض اخر قائلاً « أتريد لتتسلى أنت وترتاح ان تجعلها هدفاً لتبجح السخفاء الذين سيقولون « بدلاً من ان تلقي علينا دروساً نظرية في الرقص والغناء فالأوفق ان تُرينا منهما الدرس العملي طارحةً عنها عناء العلم والبحث والتنقيب » قلت اذاً انه خير لنا ولها ان تعمد الى عادةٍ من عاداتنا الشائنة فتحكم تمحيصها وإظهار أضرارها ، مشيرةً الى عادةٍ اخرى يحسن الجري عليها . فنخرج من تلك الحفلة متفاهمين مستفيدين »

فقال آخر « اذا طلبنا الوعظ والارشاد واحتجنا الى

الموضوع الثائر

التهذيب والتقويم فعندنا الكاهن في الكنيسة والخطيب في المسجد . أما ونحن في تطوُّر قوميٍّ كبير فلتلفتنا الى ما نفتقرُ اليه من المشروعات الزراعية والآلية والاقتصادية العائدة على البلاد بالثروة والفرج ، فتحثنّا على تأييده ويكون لقولها تأثير عظيم »

فتأفف آخرٌ قائلاً « ولكنك تخلط ، يا صاحبي ، بين احتفالات الاندية وبين أحزاب الاصلاح ولجان التقرير . ليس قصدنا سنّ قوانين جديدة للبلاد ، وتعديل ميزانيتها ، والقاء الدروس على ولاة الأمور ، وإبدال برامج التعليم بسواها . ان نحن الآَ أعضاء نادٍ اجتماعيّ من رجالٍ ونساءٍ يحيون ليلة أنسٍ وطرب . فأرى ان نترجم مقالاً او قصيدة عن كاتبٍ او شاعرٍ غربيّ ، لأن الغربيين سبقونا الى الابتكار الذهنيّ ، فتتحفنا بأفكارٍ جديدة نبتهجُ لها بلا اجهاد »

فصاح آخرٌ قائلاً « فلتسقط الترجمة إلى الحضيض وليهبط التعريب الى قعر الهاوية ! حرامٌ على من كان ذكياً ان يفني

الموضوع وقتهُ في عملٍ جديرٍ بعشر الببغاوات البشرية . أما ونحن النائم في هذا الاجتماع شرقيون لا أجنبي بيننا فلنتكلّم اذَن ، ولنتكلّم بحماسة عن وجوب تعلق القوم بلغتهم ليفهم المتفرنجون كم هم ضالّون وخليقون بالسخرية والاحتقار »

فقال آخر « وما ذنب النادي اليك ، يا عزيزي ، لتقترح اقتراحاً يعودُ عليه بالتداعي ؟ ان جل الاعضاء متفرنجون ، أزواج متفرنجات ، وآباء متفرنجين ومتفرنجات ؛ أتريد ان يسخط هؤلاء تاركين قاعاتنا بلاقع ؟ دع الناس يتكلمون بما شاءوا من لغاتٍ أنزلها الله ! أما خطيبتنا فلتصدق جنسها النسائي في حكايةٍ غرامية تصفُ فيها بعض طبقات الناس وبعض عادات البلدان ، وتشرّح عواطف المرأة ونزعاتها المتنافرة . فالرواية اليوم مسهبة كانت أم موجزة ، غدت آلةً فريدة لنشر الآراء التاريخية والنظريات العلميّة والفلسفية ، فضلاً عن وصف أحوال الشعوب وتسيير الاصلاح الاجتماعي والديني في وجهةٍ معينة »

فقال آخر « لا أرى الرواية مناسبة لهذا الموقف ،

الموضوع التائه

ولا يجعل للرواية هذه الأهمية الاَّ ذوو الأذهان الكليلة الذين يأنفون الابحاث الجادَّة مجرَّدة من الاوهام والتلفيق . بل فلترمِ هي الى الافادة المباشرة وتحدثنا بما نكبرهُ في فتاةٍ كالطبيعيات والفلك ، فأنا لا أحتمل من الكُتاب والخطباء الاّ الذين تنالني منهم فائدةً عامية ما »

فقال آخر « وهل الافادة محصورة في العلوم الطبيعية والرياضية ، وهل هي قائمة في التلقين الأبله كما يلقِن المعلم صغار المتعلِّمين ؟ أرى ان الكاتب الامثل هو الذي لا يتصوَّر نفسهُ فوق الآخرينْ علماً وذكاءً ، بل يسترسل في أبحاثه واثقاً من ان الجميع يفهمونهُ . ولكلٍّ منهم ان يحتضن من آرائهِ الخاصّة ما يتفقُ مع ميولهِ وحاجاتهِ . هـذا هو الكاتب الفنّان الذي أعزّهُ وأحبه وأهوى مجالسته عند صفحات الاوراق لانه يعرف كيف يثير مني الشجون والرغبات ، وكيف يفتح أمامي جـديد الآفاق . أما الذي يُنصّبُ نفسه معلماً لي فهو الجاهل

الموضوع المركّب ، هو الدعيُّ المغرور الذي ألقى على تنطّعه التائه وتفيهقهِ نظرةً واحدة لازداد وثوقاً ممّا أعلمهُ ، وهو انه يسقيني من ماءِ غيرهِ وانه ليس عنده اكثر ممّا يعطيني متعاظماً . . . .

فتنهد آخرٌ قائلا « ربّاه ! هل جفّت مناهل العواطف في قلوب الناس حتى صاروا لا همَّ لهم سوى العلوم والابحاث ؟ ألا فلتُسمِعنْا قصيدةً منها منظومةً أو منثورة ، فهيَ شاعرة قبل كلّ شيء . ونحن في حاجة الى أجنحة المثل الأعلى تساعدنا على النهوض من حمأةَ المادّة لنعيش ، ولو لحظةً ، في أبديةِ الجمال »

فاحتجَّ قومٌ على الشعر المنظوم والمنثور قائلين انه آفة هذا الجيل ، وانبرى آخرون يدافعون عنهُ قائلين انه سلوى الحياة ووحيها ورونقها . واشتبك الفريقان في المناقشة والجدَل

فاختليتُ أنا بنفسي أبحثُ عن الموضوع التائه . فوجدتُ فيَّ أخلاطاً نفيسة منْ معارف ومدركات

المرضوع التائر

ـمدرات ن نت وستظلّ دواماً ارث بني الانسان : فهناك الابحاث الفلسفية والتاريخية ، وهنـاك الاكتشافات والاختراعات ، وهناك الآداب واللغـات ، وهناك العلوم الطبيعية والرياضية ، وهناك المذاهب اللاهوتية والباطنية ، وهناك الفنون الجميلة على اختلافها ، وهناك الروايات والاشعار وعلوم البيان ووصف الاسفار ، وهناك الموضوعات الخفيفة الرشيقة المفكهة ، والاخرى الوجيعة الرثائية المحزنة . وعلى مقربة منها اساليب النقد واقتراحات الاصلاح وخرائط المشروعات المتنوعة

وبينا جلبـة وفد النـادي تصطخب حولي جعلتُ انا اخلق لذاتي الجماهير المتعددة ـ كما تُمثّل احياناً رواية مصغَّرة خلال تمثيل الرواية الكبيرة ـ ، وصرتُ اخطب في كلِّ جمهورٍ بما يحبُّ ويتطلّب . فأقتضبُ الكلام هنا ، وهناك أطيلهُ . اتكلّم مرةً بتحمُّس الشاعر ، وبتدقيق الباحث اخرى . حيناً بصرامة العلم الطبيعي وحيناً بسيطرة الفكر الفلسفي . هنا بعذوبة الحب

وأنينه ، وهناك بقسوة الاصلاح واستثاره الموضوع التائه

خلقتُ لذاتي الجماهير لا لاعلّم بل لأتعلّم ، لا لأفيد بل لأستفيد ، لا لاوقف الآخرين على اسرارهم وممكناتهم بل لأهتدي الى أسراري وممكناتي . تكلمتُ ودرستُ وكتبتُ وخطبتُ لأهذب نفسي وأدلّلها ، لأعزيها وأنميها . فعلتُ ذلك لأطير ونفسي فوق الشواهق ، ونحسو ماء الغدران ، ونكتنهُ غور الاعماق ، ونمتص عصير الازهار ، فأعيش واياها تلك الحياة الداخلية الرائعة التي يُشرَفُ منها وحدها على بدائع الكون

وما زلتُ أفعل ذلك ـ والناس يتناقشون في أي الموضوعات أنسب وأنفع ، وفي اي الموضوعات عليَّ ان اعالج !

*

انتَ ، ايها الغريب !

أنت
أيها
الغريب

أنا وأنتِ سجينان من مساجين الحياة ،
وكما يُعرَف المساجين بأرقامهم يُعرَفُ كلّ حيٍّ
باسمِهِ

وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم
للضحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض
أحياناً

أنا منهم وإياك غير ان شبهك بهم يسيئني . لأني
انما اقلدهم لأريك وجهاً مني جديداً . وأنت ، أتجاريهم
بمثل قصدي أم الهزؤ والاستخفاف فيك طويّة وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي
للتغافل منك والحبور ، أراني وإياك على تفاهم صامتٍ
مستديم يتخللهُ تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان
والعبوس والتأثر

أنتَ أيها الغريب

بنظرك النافذ الهادىء تذوّقتُ غبطة من لهُ عينٌ
ترقبهُ وتهتمُّ بهِ . فصرتُ ما ذكرتك إلاّ ارتدت نفسي
بثوبٍ فضفاضٍ من الصلاح والنبل والكرم ، متمنيةً ان
أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق

* * *

أنت أيها الغريب

لي بك ثقةٌ موثقة ، وقلبي العتيُّ يفيضُ دموعاً
بسأفزعُ الى رحمتك عند إخفاق الاماني ، وأبثك
شكوى احزاني ـ أنا التي تراني طروبةً طيّارة ،
وأحدي لك الاثقال التي قوّست كتفيّ وحنت
رأسي منذ فجر أيّامي ـ أنا التي أسير محفوفة بجناحين
متوّجةً بأكاليل ،
وسأدعوك أبي وأمّي متهيّبةً فيكَ سطوة الكبير
وتأثير الآمر ،
وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم ان
هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبّين

وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق

وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة ـ أنا التي تتخيّل فيَّ قوَّة الابطال ومناعة الصناديد

وسأبيّنُ لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك ـ وأنت لا تدري

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل

واذ اسيء التصرُّف وأرتكبُ ذنباً ما سأسير اليك متواضعةً واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة

وقد أتعمَّد الخطأ لأفوز بسخطك عليَّ فأتوب على يدك وامتثل لأمرك

وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنويَّة مقدِّمةً لك عن أعمالي حساباً لأحصل على التحبيذ منك او الاستنكار ، فأسعد في الحالين

وسأوقفك على حقيقة ما يُنسَبُ اليّ من آثام ،

انت ابرها الغريب

انت فتكون لي وحدك الحَكَم المنصف
أيها وما يحسبهُ الناس لي فضلاً وحسنات سأبسطهُ أمامك
الغريب فتنبهني الى الغلط فيه والسهو والنقصان

ستقوّمني وتسامحني وتشجّعني . وتحتقر المتحاملين
والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح
جناني

كما أكذّب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ،
ولا أصدّق سوى نظرتي فيك وهي أبرُّ شاهد
كلّ ذلك ـ وأنتَ لا تعلم !

* * *

أنت سأستعيدُ ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك
أيها حكاية غمومك واطماعك وآمالك ـ حكاية البشر المتجمعة
الغريب في فردٍ احد
وسأتسمَّعُ الى جميع الاصوات علّي أعثر على لهجة
صوتك
وأشرِّحُ جميع الأفكار وامتدج الصائب من الآراء

انت ايها الغريب

ليتعاظم تمديري لآرائك وأفكارك

وسأتبيَّن في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صور تعبيرك ومعناك

وسأبتسم في المرأة ابتسامتك ،

في حضورك سأتحوّل عنك الى نفسي لافكّر فيك ، وفي غيابك سأتحوّل عن الآخرين اليك لافكّر فيك

سأتصوّرك عليلاً لاشفيك ، مُصاباً لاعزّيك ، مطروداً مرذولا لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأيّ تهورٍ يجازفُ الاخلاصُ ؛ ثم أبصرك متفوّقاً فريداً لأفاخر بك واركن اليك

وسأتخيّل الف الف مرَّة كيف انتَ تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلَّب على عاديّ الانفعال برازنة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل . وسأتخيّلُ الف الف مرة الى أي

انت درجةٍ تستطيع أنتَ ان تقسو ، والى أي درجة تستطيع
ابها انتَ ان ترفق لأعرف الى أيّ درجةٍ تستطيع أنتَ
الغريب ان تحبّ

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك
اوحيت اليَّ ما عجز دونهُ الاخرون

أتعلم ذلك ، انتَ الذي لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ، انت
الذي لا اريدُ ان تعلم ؟

*

قرب منعطف السبيل

قرب منعطف السبيل

قرب منعطف السبيل عندما تمثّلت انقضاء الماضي ، وجمود الحاضر ، واستحالة السير الى الامام ، لم يبقَ لي سوى اختيار احدى الميتتين : ميتة طويلة مفعمة بحشرجة القنوط ، وميتة الانتحار السريعة المنقذة

فاخترتُ هذه على ان اجعلها كيسةً مأنوسة لا تلطّخها الدماء ولا تتلوّى فيها الاعضاء . واهتديتُ الى الازهار المزعوفة التي تطعَّم منها العطرُ بالسمِّ ولهاث الردى . ولكن —

هناك ، في تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القَدَرُ من دواهيه على صدري جدران الحديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق، برزتَ فجأةً امامي

وأخذت تتكلّم عن معانٍ اختفت طيّ المعاني ، وأشياء توارت في الاشياء ، وممكنات حُجبَت في

قرب المستحيلات ، وخيرٍ حصحص وراءَ الشرّ ، ونورٍ أشرق
منعطف في لجج الظلام ، وسموٍّ تجلّى خلال الحقارة
السبيل وكانت يدك تتحرّك متريّثةً متأنية فبدت منها الاشارات
سحرية ساهيةً ، كأنما هي انعكاس إشاراتٍ خفيّة على المرايا
المتبحّرة في مهجور القصور . وضاءَ الجوُّ حولي بلألاءِ
الشرف والا بهة والسؤدد . ومشى نظرك توًّا اليَّ يكتشفُ
فيَّ جديد العوالم

نظرتَ ، فعلّمتني اعزاز الوجود وأدركتُ اني
ما تخيَّلتُ أجَلي عند حينهِ الاّ لأتشدَّد وأتحفّز لوثبةٍ
كبيرةٍ ـ كما يتنفَّسُ المتسابقون منتعشين متجدّدين قبيل
خطير الاشواط

فارتدَّت الحوائطُ قليلاً قليلاً وتنحّتِ الحصونُ
مسفرة عن المروج والرياض واتشحتِ الكائناتُ بنقابٍ
وسيم لا تنسجهُ سوى يدُ الوجدِ على زعمِ المُتَيّمين
ولكن ، أنّى جاءَ الوجدُ ؟ .

* * *

أنتَ لم تكن تهتمّ بي وأنا لم أكن اهتمّ بك . ولكن علامَ تشلّ أوصال روحي للدنوِّ من مكانِ حلّتهُ ؟ وعلامَ اضطرابك وارتعاش يديك اذ تلمح خيالي عن بعدٍ ؟

أنتَ لم تكن تنظر اليَّ وأنا لم اكن أنظر اليك . ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطري وأهرب عند قدومك ؟ وأنتَ ان لم تستطع السكوت ، لماذا يخرج صوتك متقطّعاً متهدّجاً كأنك تجاهد لتقهر تأثراً ما ؟

أَنتَ لم تكن تعبأ بوجودي وأنا لم اكنْ أعبأ بوجودك . ولكن لماذا كنتُ اخاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه ؟ ولماذا ، وانت مثال الوداعة والتهذيب ، كنت تكفهرّ لحضوري وتنقبض كمن يودُّ ان يتجنّى عليَّ ، اوكمن يخشى ان يُرمَى بالبشاشة والمجاملة . ثم يعودُ نظرك في المرة التالية يستصفحني عن زلّته - نا التي كنت اغتفرُ لك واتناسى مُرغمةً قبل ان تُحدّث نفسك بالاستغفار .

قرب منعطف السبيل

أنت لم تكن تفكّر فيَّ وأنا لم أكن أفكر فيك .
ولكن لماذا كنت أحيدُ عن طريقك لئلاَّ ألتقي بك
أنا التي أودُّ ان أبحث عنكَ في كلّ مكانٍ ؟ ولماذا كنتَ
تتقن خطواتك إذ تعلم اني أرقبها ، وتنغم نبرات صوتك
وتنوّعها إذ تعلم انها واصلة اليَّ ؟

أنت لم تكن لي شيئاً وأنا لم أكن لك شيئاً .
ولكنَّ وجوه القائمين حولك كنتُ أراها متألّقةً بنورك .
وأنتَ كانت تدهشك كلُّ حركة منّي كأنها لم يأتها قبلي
إنسان

أنتَ لم تكن لي شيئاً وأنا لم اكن لك شيئاً
ولكن أليس ان ارادتك حلّقت فوق خواطري كيد آمرةٍ
فتقتُ لاجلها الى الطاعة والخضوع ؟ أوَليس انك كنت
تحاول ارضائي وإثارة اعجابي حتى ارتَفَعْتَ بذلك فوق
ذاتك المألوفة فتجليت بهياً عظيماً ؟

* * *

مَن أنتَ ؟ وماذا كنت ؟

أ كنتَ وحياً من فيض شاعريتي المكتظّة ، وطيفاً من اطياف شوقي وعذابي ؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر الى الشواطىء النائية ؟

ذرب منعطف المبيل

لقد كنتَ وحياً من فيض شاعريتي المكتظّة ، وكنت طيفاً من أطياف شوقي وعذابي ؛ وأنتَ حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي مرور السفن في البحر الى الشواطىء النائية

يا مهذّبي !

*

اين وطني ؟

أين وطني

عندما ذاعت أسماء الوطنيات

كتبتُ اسم وطني ووضعتُ عليه شفتيَّ أُقبّلهُ ،

وأحصيت آلامهُ مفاخرة بأنَّ لي كذوي الأوطان وطناً ،

ثمَّ جاء دورُ الشرح والتفصيل فألممتُ بالمشا كل التي لا تُحَلّ

وحنيتُ جبهتي ، وأنشأت أُفكّر ؛

وما لبث ان انقلب التفكُّر فيَّ شعوراً ،

فشعرتُ بانسحاقٍ عميق يذلّني

لأني ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها

* * *

أين وطني

يوقظني في الصباح نفيرُ الجيوش المودّعة . ولدوي أبواق النحاس أنغامٌ تثقلها دموعُ الفراق ، وأهازيج يُجنّحها طلبُ التفادي والاستبسال . فأمقتُ الظافرين وأودُّ لحظةً ان أتوحَّد وإياهم لأنسى في ثروتهم فقري ، وفي بطشهم هواني

وإذ تمرُّ مواكبُ الامم المظلومة منكّسةً أعلامها وراء نعوش الشهداء ، وهتافُ الحرّية والاستقلال يتغلّب على أنين الثكل والتفجُّع منها ـ أعتزُّ لأني ابنة شعب في حالة التكوُّن والارتفاع ، لا تابعة شعب تكوّن وارتفع ولم يبق أمامهُ سوف الانحدار

ولكنّ الشعوب تهمسُ همساً يطرقُ مسمعي : فهؤلاءِ يقولون « أنتِ لستِ منّا لأنكِ من طائفةٍ اخرى » . ويقول أولئك « أنتِ لستِ منّا لأنك من جنس آخر »

فلماذا أكون ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها ؟

* * *

أين وطني

ولدتُ في بلد، وأبي من بلدٍ، وأمي من بلدٍ، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلدٍ الى بلدٍ. فلأيّ هذه البلدان انتمي، وعن أيّ هذه البلدان أُدافع؟

يمضي الموتى تاركين للأحفاد وراثات حسّيّة ومعنوية ينعمون بها، وشرفاً قومياً يعززونه، وتقاليد يحافظون عليها. امّا انا فلم يبقَ لي من آثار موتاي سوى الاثقال المعلّقة في يديّ وعنقي. اثقال اذا حاولت طرحها والفرار جرّت قدماي ما هو اثقل منها ـ فهبطتُ على طريق جلجاتي تشير نحوي اصابع المتشفّين الساخرين، وليس من يدٍ رحيمةٍ تعينُ وتؤاسي

واما متاع موتاي فاستولى عليه أولئك الأباعد. ولو تخلُّوا عنه لتحكّم بي هؤلاء الاقارب الذين عيّرتني منهم القحة بصفاتٍ انقلبت عندهم عيوباً، وانكر عليَّ الحسدُ منهم والخمول حقَّ التمتّع بما اشتريتهُ بالجهود والعبرات

بأيّ اللهجات اتفاهم والناس، وبأيّ الروابط ارتبط؟

أأتقيَّدُ بلغة جماعتي وهي، على زعمهم، ليست لي ولم توجد لأمثالي؟ ام اكتفي بلغة الغرباء وانا في نظرهم متهجّمة عليها؟ أأصون عادات قديمة يحاربها اليوم الناهضون ام اقبل الاساليب الحديثة فأكون لسهام المحافظين هدفاً؟

أين وطني

اذا جاملتُ العتيّ توصّلاً إلى ما لا غنى عنهُ قالوا عبدة تمرّغ جبهتها في التراب وتتزلّف؛ واذا جعلت لي من المصارحة سلاحاً، ومن الأنفة حصناً سطَت عليّ اليدُ الحديدية، ومزّقتني ألسنة «الاخوان»، وانفضّ من حولي «المخلصون» لأنهم إنما خلقوا لمساعدة نفوسهم

فلماذا قُدّر عليّ ان اكون ابنة وطنٍ تنقصهُ شروط الوطنية، فأُمسي تلك التي لا وطن لها؟

* * *

كلُّ امةٍ تحدّثُ عن عظمتها وفضلها على المدنيّة ونبلها في صيانة حقوق الضعفاء، ـ فبأيّ الامم اعجب؟

أين وطني

وكلُّ امة ـ دون سواها ـ تحمي ذمار الحرية وتذود عن العدل والمساواة والاخاء، ـ فعلى أيّ الامم اتكل؟

ابن وطني

وكلُّ دين ـ دون سواه ـ احتكر لأتباعه الشرف والفضيلة في الحياة ، والسماء والالوهية بعد المات ، ـ فأي الاديان اعتنق ؟

وكلُّ حزب يدَّعي الصدق والعصمة ، وكل فرد صائب الرأي يضحي الخير الخاص للخير العام ، ـ فأيُّ الاحزاب اصدق وأيُّ الافراد اتبع ؟

ما سمعتُ وصف بلادٍ الاّ سعى اليها اشتياقي

ولا حُدِّثتُ عن بسالة أُمةٍ وسؤددها الاّ تمنيتها امتي

ولا اصغيت الى صوت قوم إلاّ خلتهُ صوت يأسي وأملي

ولا تبيَّنتُ عيوب شعبٍ ومفاخره الاّ ادركتها صورة مفاخري وعيوبي

ولا رمت طائفةً بالتعصب والمغالاة الاّ وجدتُ فيَّ هذه المغالاة وذاك التعصب

ولا تخيلت مسافات الارض وابعاد الفلك والصحاري والبحار والكواكب والعوالم إلاّ اهتاجني الحنين اليها

أين وطني

كأنها اوطان يردّدُ هواؤها ترنيمة طفولتي وتنتظرني فيها قلوب الاحباب والخلاّن

أمّا وقوى إعزازي تتوزّع باستهتارٍ وجنون ، فلماذا تتجمّع قوى اكتئابي عميقة مرهفة لأني انا وحدي - وحدي في الدنيا - تلك التي لا وطن لها ؟

* * *

أين وطني

بنسيم وطني امتزج الوحي والنبوات

ومع اشعة الشمس فيه انتشرت سورُ الجمال

فكانت لهُ حياة وهّاجة متلظّية وراء مظاهر الجمود والهجران ،

وخيالات الآلهة تسيرُ ابداً فيه متمهلة متأمّلة

من القمم والوديان ، من الصخور والينابيع ، من الاحراج والمروج تتعالى معاني بلادي في الضحى ، وعند الشفق تتكاملُ ارواحُ الاشياء وتتجمهر كأنها تتداول في إنشاء عوالم جديدة

أيهم وطني

أَحبُّ عطور تربة الجدود ورائحة الارض التي دغدغها المحراث منذ حين

احبُّ الحصى والاعشاب ، وقطرات الماء الملتجئة الى شقوق الاصلاد

واحبُّ الاشجار ذات الظلّ الوارف أكانت محجوبة في احشاء الوادي ، ام اسفرت مشرفة على البحر البعيد

واحبُّ الطرق الوعرة المتوارية في قلب الغاب ، وتلك المتلوية على اكتاف الجبال كالافاعي البيضاء ، وتلك السبل الطويلة الممتدة الممتدَّة ، وكأنّ الغبار الذهبيَّ منها ينتهي الى قرص الشمس

ولكن أَيكفي ان نحبَّ شيئاً ليصير لنا ؟ وهكذا رغم حبي الأَفيح اراني في وطني تلك الشريدة الطريدة التي لا وطن لها !

* * *

أين وطني

جرَّبتُ من الوطنيات صنوفاً : وطنية الافكار والاذواق والميول

أبن وطنى

وتلك الوطنية القدسية المثلى : وطنية القلوب
فوجدتُ في عالم المعنى ما عرفته في عالم الحس
إلاّ بقعة بعيدة تفرَّدت فيها الصور وتسامت المعاني .
ثقّفني أبناء وطني ، وأدَّبني ابناء الاوطان الاخرى
وأسعدني ابناء وطني وأسعدني الغرباء ايضاً ،
ولا ميزة لأبناء وطني في انهم اوسعوني إيلاماً
فقد نالني من الغرباءِ اذًى كثير :
فبأي الاقيسة أقيس ابناء الوطن ،
ولماذا اكون انا وحدي تلك التي لا تدري أين وطنها ؟

* * *

أبن وطنى

ايها السعداء ذوي الأهل والاوطان ، عرّفوا لي سعادتكم واشركوني فيها !
رضيتُ حيناً بأنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن من وطن ، اما اليوم فصرت أعلم انّ للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطناً . صرتُ أعرف ضعف الانسان الذي

أُبن اذا مال إلى النوم والراحة طلب مضجعاً ناعماً لجسمه المضنى
وطنى لا مرْجاً واسعاً يتناوله منه الحرُّ والبرد ، ولا بحراً عرمرماً
تبتلعهُ منهُ اللجج

* * *

ابن إني اعبدُ تفطّرك الصامت ، ايها الفيلسوف القديم ،
وطنى انت الذي بعد ان اكتشفت آيات الفكر وعجائبه ،
أرسلت زفرةً كأنها شكوى الدهور فقلتَ : انما اريدُ
صديقاً لأموت لأجلهِ

وأَنا اجثو الآن خاشعة امام ذكرك مردّدةً
ما يشبهُ قولك : إنما اريد وطناً لأموت لأجله ـ او
لأحيا به !

عند قدمَيّ ابي الهول

عند قدمَيّ أبي الهول

الافق واسع واسع والليل عميق عميق ، وأنوار المساكن وأَضواء الشهب في احشاء الدجى جراح وحروق. وأَصوات المدينة تحدّث عن اوصاب المدينة جاهلةً ما عداها. لذلك جئتُ ناديكَ انشد الاختلاء وراء تلالٍ فصلت بين عمران البشر الضاجّ المقيّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي

تتتالى على البسيطة شعوبٌ ودولٌ تأتي بالاديان والشرائع. واللغات والعادات ، وتتبارى في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين وصواعق وأَوبئة وثورات وزعازع وطوفانات - وانت هنا رابض امام اهرام انتصبت في وجه الفضاء تنقض احكام الفناء. والهيا كل تلقي بين يديك حديث الدهر بالفاظ الحجر والصوّان ، وتعزّزهُ بصور الارباب والملوك والكهنة. وكأنّ ما نزل بها من العاديات

عند — قرمي — الى — الهول

بعض تلك الصور المثيلة خطابها بلاغته وروعته
ها هنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك
الفيحاء مملكة الكتمان والجلال والايماء ، وعظمة القياصرة
حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجرّدة الرفيعة
والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان
وحدتك السنيّ . ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه
الاشباح الفانية ، وغير ملموس لهذه الايدي الذبابية
المتنقلة على مخالبك ومنكبيك تلهياً واستقصاء

غير ان الانسان ليس بالمتلهّي المستقصي فحسب ،
بل هو خصوصاً الدنف المتألّم . يتناوله من الكون قهراً
دوّار الفواجع والنوائب فيدركُ ان الثبات العام منسوجٌ
من الوجل والاضطراب ، وان البقاء الظاهر مصنوعٌ من
التغيُّر والتحوُّل . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر .
يدرك ان عجاجات القوى تُضيع جزافاً في شلاّل الذراري
والانسال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين
والانبياء والقتلة والقتلى سواسية . يرى التعامسة على طريق

عند قرمي الى الهول

العروش ، والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الاعراس والجنازات • والمواليـد والوفيات يتخللها العوز والبطر ، والمرض والعافية ، والخيانة والامانة ، والدعوى والتطيُّر ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطّره ويعذّب سواه يظلُّ الكون على ما هو ، والخلائق والاشياء تتوثّب فيه وتتولّد كالمياه الرهوة الرجراجة ، وكلُّ ما خال منها وشيكاً كان نهايةً تعقبها بدايةٌ وانقاضاً تستوي عليها الأسسُ

واذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال لهُ « هـذه هي الحياة ! » « ماهذا الاّ الحياة » « لا تكون الحياة الاّ كذا » نعم ، يا أبا الاهوال الساهي ، ازاء الهبة والحرمانْ ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلّة ، والغلبة والاندحار . ازاء كل مسرةٍ وكل توجع ، التفسير واحدٌ لا يتغيّر ! اننا نفسّر الحياة بالحياة ، ونداوي داء الحياة بمصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنجدْنا والحياة وجهاً لوجهٍ

* * *

وانا صورةٌ منْ ملايين صور الحياة نهضتُ أتفهّمُ

عذر قدمي الى الهول

الحياة كما نهض جميع اولئك المساكين . وكما وقفتَ قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفتُ أسألُ ابناء السبيل عن معنى الحياة . فقال أحدهم « هي صدر الام »

فالتصقتُ بصدر امي فاذا انا منه في عشّ دفء وحرارة وحصن مناعة وأمان ، لا ترعبني الرياح العاصفة والرعود الداوية ، والبروق الملعلعة والسيول المتدفقة . ومرّ يوم . فضاق بي صدر امي وعدتُ الى موقفي أسأل « ما هي الحياة ؟ »

فاجاب مجيبٌ « هي الدين والتقوى »

فبادرتُ أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفيةً اداة التقشّف والاماتة تحت مزركش الاثواب ، وأقرع صدري مستغفرةً عن آثام لم أرتكبها وذنوبٍ لم تخطر على بالي . فناجتني الصور الصامتة في أُطُرِها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير . فمرّ يوم . وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر صلابة وبرودة . وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مرسحياً . وأرواح البخور التي كانت

عذر فرمي الى المهول

تنزل عليّ فيض الوحي والالهام غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف. فعدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتظرّف ؟ »

فضيت أساجل مرآتي فتعشقت صورتي فيها. ولم اكن أفارق تلك الصورة الاّ لأبحث عما يزينها ويجملها. وكان يبكيني مشهد الباكين. فاصبحت وقد تذوّقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب. ومر يوم. فأطلّ شبح الملل في عينيّ فعدت أسأل ابناء السبيل « ما هي الحياة ؟ »

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال « هي الثروة والجاه العالمي وابهة العمران »

فعدوت في سبيل هذه سوى اني لم اصرف ساعة حتى تحجّر كياني. فعدت والضجر يقتلني أسأل « ما هي الحياة ؟ »

عنز
فدمى
الى
الهول

سألتُ طويلاً، وبكيت غزيراً، وقنطت حتى طلبت الموت فانبثقت صورةٌ من غور عنائي. لم تتكلّم وانما فهمتُ ان الحياة عندها. أرأيت، يا ابا الهول، النجوم راقصة؟ بلحظة تامل ثابتُ النواميس فرقصت جميع النجوم حولي، وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت، وتناقلت الموجودات صورة وجهٍ واحد ـ او نفرت بنسخ خطٍّ من خطوطه وانتحال معنى من معانيه. واستخدثت جميع الاشرقة نورها من تألُّق عينين اثنتين، وصارت زرقة الجوّ وبهجة الربيع وطلاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة ـ تلك البسمة البطيئة الرقيقة النادرة. واستدعتني الالوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لواب الوجود وقمتُ واياه بادارة حركة الاكوان. فمرَّ يومٌ. فقمعت ثورة النجوم وقدَّمت خضوعها للنظام الاوحد، وعادت لكل كائن اهميته في الخليقة. فرجعت أسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ »

عذر قدمي الى المهول

فقال صوت العلم الرزين « انا الحياة لأني أشرح الحياة »

فالقيتُ بنفسي في الخضم الزاخر أعالج العلم المادي تارةً والفلسفة الروحانية اخرى . كم من علم خلقنا ، أيها المليك ، لنبحث عمّا لا يُعلم ، وكم من لغة ابدعنا لنشرح ما لا يُشرح ! فهداني الجهابذة الى القوة التي يتمّ بها التفاعل الكونيُّ بين الاجرام فلا تتفلّت من عناتها شمس ولا ذرة : الجاذبية . فسألتُ وما هي هذه الجاذبية ، من رآها ، من سمعها ، من لمسها ؟ أهي وسيطٌ ينتقل على تموُّج الاثير ، ام هي سيال يتموّج بنفسه مستقلاً عن العناصر ؟ فاجابوا « ذاك سرُّ الحياة وهو مجهول »

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جميعاً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة ـ منذ أربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة والعلم يقلّب الذرة الواحدة منها ويديرها

عند قدمي الى الهول

ويقسّمها ويجزىء تقسيمها . لقد نخَرها بحثاً ودرساً ، وقتلها تشريحاً وتحليلاً متلمّساً علة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فسارت جهوده من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام . وما زال مثلي انا الطفلة الغريرة يسأل « ما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

كذلك طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لأنهم لم يفهموا . والقليلون الذين وقفوا وأجابوا ارهفوا فيَّ اللجاجة والحرقة والاسى

* * *

عند قدمي الى الهول

يا وليد بابل ام السحر والتعاويذ ، الى أي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا اودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للالهة الهواتف ؟ ولماذا لا يعرف موضع اصغرك الاجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الاعقاب ؟

تفترُ شفتاك دون كشف واعلان ، أتأكيدٌ هذه

البسمة ام ايهام ؟ أ إشفاق على دماء المفاداة وقد أُذيبت فيها الاوحال ، ام لأنَّ ما هو كائن أقاص من ظلّ حصاةٍ حيال ما سيكون ؟

عند فرمي الى الرهول

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحي عُبدَ من منبعه الى مصبّه لما يظهره من اريحية ووفاء ، اتدرك معنى احمراره الصيفيّ ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسيّ تجلّت به اهرامك الخالدة ؟ انت الذي نحتّك الكلدان قبل ان يرسموا دائرة البروج ، أتعلم ما اذا كانت هذه الاهرام منائر للصحراء ام مدافن للفراعنة ، ام حصون دفاع ، ام مستودعات كنوز ، ام مجتمع عشاق ، ام محفلاً فيه يدينُ اوزريس موتاه ؟ اتعلم لماذا أُدرجت اوراق البردي واسرارها الهيرغليفية طيّ الاكفان مع المومياات في التوابيت والنواويس ؟ أتعرفُ معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس ؟ نحن الجهلاء نعلم ان جميع هذه انما هي رموزٌ الى الحيا المتحكمة فينا ، وانت

عذر فرمى لي الرهول

ألم يبقَ لك ما يُكتسب هبنا لتحوّل نظرك وتسكت
سكوتاً لا ينتهي ؟

ام انت لا ترقب هناك سوى ما نرقبُ ؟ أترصد
حركة الاصبع الموجه الابرة الممغنطة نحو الشمال تجرُّ بعدها
النُظُم الشمسية وهيئات الكواكب ؟ أم تستعرض مواكب
الانوار والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات ، وجحافل
الامكنة والازمنة ؟ ام انت تتهجّأ اسم الحياة يخطّه قلم
النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم ؟ أم
يذهلك تدفّق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود
ليتكوّن اثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم
ما هذا الذي ننتظرهُ وتنتظرهُ الآفاق المنحنية علينا ؟ لقد
سُجنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين
فنهبُّ نحسبها مقدّمةً لتحقيق الرجيّة ، وما هي غير السراب
الخدّاع . فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار متردّدين
لقد دُفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت

ترقب الشرق وتبتسم ، ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظلُّ نترقب ونرجو

أصحيح ان لغزك لغز الدهور ام خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله ؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى السكوت ، ومن الاسد براثن التحمُّس والاستمامة الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلّقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة ، ومنه ـ من انسانيته ـ اعطاك الرأس مشيراً الى التبصُّر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبه ولا يضيف اليها ما بقي ؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الامل المتجدّد أبداً فيه . أليس انه مثلك لأنك مثله ؟ اليس ان في اعماقه أبا هول شاخصاً ابداً في السموات العلى كلما ظفر بفجرٍ وشروقٍ لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟

عند قدمي ابي الهول

فهرس

الكتاب الاول . من كوة الحياة

الكتاب الثاني : نحو مرقص الحياة

الكتاب الثالث : في مرقص الحياة